أضواء على اعتزاليات الزمخشري في الكشاف

عرض ودراسة وتعليق

إعداد

أ.د محمد عبد الجليل حسن محمود

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية الدراسات الإسلامية بنين بأسوان

عميد كلية البنات الأزهرية بأسوان سابقا

وعضو لجنة المحكمين لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين بقسم التفسير وعلوم القرآن الكريم بجامعة الأزهر

أضواء على اعتزاليات الزمخشري في الكشاف
عرض ودراسة وتعليق

محمد عبد الجليل حسن محمود

قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية بنين، جامعة الأزهر، أسوان، جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني: mohamedhassan.islam.asw.b@azhar.edu.eg

ملخص البحث

يعمد هذا البحث إلى توجيه عين النقد والفحص إلى تفسير المعتزلة وما بثوه في كتبهم المتعددة بصفة عامة وخاصة كتب التفسير، حيث مجال التخصص والبحث هنا، وما ذكره جار الله الزمخشري في تفسيره: "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" والذي يعد آية في بابه من حيث ما أودع فيه مؤلفه من فنون اللغة، وأسرار البلاغة، ووجوه النحو ودقائق التفسير، ونكاته الطيبة، وعيون الكلام التي لا تجدها إلا في هذا الكتاب، ورغم ذلك كله ملأ الزمخشري تفسيره بالاعتزاليات البغيضة والآراء الباطلة التي حشى بها كتابه تأييدا لمذهبه الاعتزالي على حساب تفسير القرآن، وهذا بمثابة وضع السم في العسل حتى لا يفطن إلى ما صنعه إلا أهل التخصص من العلماء والفقهاء وأصحاب الشأن، ولولا أن الله تعالى قيّض له من العلماء من يكشف زيف كلامه في تفسيره الاعتزالي- أمثال العلامة أحمد بن المنيّر- وغيره لكانت طامة كبرى في أخصص العلوم

وأجلها وهو علم التفسير. وبحثي هذا قد رصد شيئا من ذلك من ناحية عرض الأقوال الزمخشرية ومناقشته فيها والتعليق عليها، وردها بالحجة والبرهان، حتى يطمئن القارئ إلى ما يقرأ في تفسير الكشاف ويعلم أين مواقع الخير فيه، وأين مواقع الشر، لعلي بذلك أكون - إن شاء الله تعالى - ممن ساهم في بيان الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، بصورة مرضية وفي ثوب قشيب.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الكلمات المفتاحية: كشاف ، اعتزال ، السنة ، تعليق ، نقد ، فحص.

Spotlights on Zamkhachari's Solitaries in the prospector (AlKashaf)

Mohamed Abdel Galil Hassan Mahmoud

Department of Tafsir (Interpretation) and Quranic Sciences, Faculty of Islamic Studies for Male, Al-Azhar University, Aswan, Egypt.

Email: mohamedhassan.islam.asw.b@azhar.edu.eg

Abstract

The research directs criticism and inspection to the interpretation of the Mu'tazilites and what they broadcast in their various books in general and, in particular, books of interpretation where there is the area of specialization and research here and what Jarallah Zamakhshari mentioned in his interpretation: "The prospector (Al Kashaf) the facts of revelation and sayings eyes in the faces of interpretation" which is considered a verse in its chapter In terms of what was deposited by the author of language arts, secrets of rhetoric, and faces of grammar and the partitives of interpretation, good hints, and the eyes of speech that cannot be found except in this book. Despite all of his; Al-Zamakhshari filled his interpretation with abhorrent quarrels and false views that stuffed his book with in support of his aside doctrine on the account of the interpretation of the Koran. This was as putting poison in honey so that nobody could discern what perceive what he did except the specialists of scholars and jurists and stakeholders. Unless God Almighty him had drudged some of scientists who reveal the falsity of his words in his solitary interpretation such as Ahmed bin Munir, the scholar - and others it would have been a major disaster in the science interpretation. My research mentioned some of that showing Zamakhshari's sayings discussing him in it, commenting

on it and responding with evidence in order to make the reader trust what he reads in Al-Kashaf interpretation. He also knows the areas of good and the areas of evil in it. I hope, God Almighty willing, I will be one of those who participate in showing right from falsehood and the correct and the incorrect in a satisfying way and in a good form. Allah's blessings be upon our Master Mohammed and his parents and his companions.

Keywords: Al-Kashaf (the prospector), non conformist, Sunnah, discussion , commentary , criticism , check.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيّدنا ومولانا محمد النبي الأميّ الهادي الأمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين .

وبعد ،،،

فإن من عظيم الشرف، وعال القدر، وكريم الشأن، لهذه الأمة المحمدية الخاتمة، أن أكرمها ربها- تبارك وتعالى - فجعل لها القرآن الكريم منهجا ودستورا، وهدايته نبراسا، وطريقه نورا، وإدراك مغزاه غاية ومقصودا، فأحلوا حلاله، وحرّموا حرامه، ووقفوا على أهدافه وغاياته فكانوا به خير الأمم منزلة، وأعظمها مكانة، أنزله الله تعالى على رسوله الكريم ونبيّه العظيم، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، بعد أن كانوا في ضلال مبين، وجهل عميم، فأوصاهم الله تعالى بتلاوته وحفظه ليسعدوا به في الأولين والآخرين، فهو الفرقان الذي لا يخمد برهانه، والعزّ الذي لا يهزم أتباعه وأنصاره، والحق الذي لا يخذل أعوانه، والبنيان الراسخ الذي لا تهدم أركانه، فأمرهم بالتمسك بأحكامه والتأدب بآدبه، فهو الهادي الذي لا يُضل، والناصح الذي لا يَغش، والمحدّث الذي لا يكذب، فأخباره صادقة ودلائله واضحة، وآدابه سامية، وأخلاقه عالية، وشرائعه فائقة، ومواعظه بالغة، وعباراته سائغة، وكلماته عذبة، تأخذ بالألباب وتجذب القلوب والأرواح، ليس لأحد مهما

كان شأنه، أو بلغ علمه، أن يأتي بمثله أو شيء منه البتة.قال الله تعالى:{**قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**}[الإسراء ٨٨] وهو الكتاب الحق الذي:{**لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**}[**فصلت ٤٢**]فأعظم به من كتاب، وأكرم به من منهاج.

من هذا المنطلق: وجد القرآن العظيم في الصحابة الكرام الإقبال الأمثل عليه بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، حيث عكفوا عليه حفظا ودراسة وفهما، قارئين نصوصه، متدبرين آياته وسوره، مفسّرين لها، واقفين على مغزاها وتعيين مرماها لأنه الكتاب الخالد، والنور الساطع، والسراج المنير معتمدين في ذلك على ما عرفوه من بيان وتوضيح من الرسول الأعظم والنبيّ الأكرم، سيّدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو أعلم بما أنزل عليه، وأيقن بمقصود ربه إليه، وما لم يسمعوا فيه شيئا منه– عليه الصلاة والسلام - اجتهدوا فيه رأيهم، وفسّروه بما كان عندهم من فصاحة وبلاغة، ومعرفة تامة باللغة وأسرارها، إضافة إلى ما مُنحهم الله من صفاء في الذهن، وذكاء في العقل ونور في القلب، مع تقوى وصلاح وزهد ونقاء.

ثم جاء من بعدهم التابعون الذين جعلوا الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ المثل الأعلى لهم حيث ساروا على نهجهم، وسلكوا طريقهم، في كل ما تعلّموه من أستاذ الأستاذين، ومعلّم المعلّمين، سيّدنا ونبيّنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم زادوا هم من عندهم ما لم يسمعوا فيه شيئا من الصحابة بقدر الحاجة، وحسب ما تدعوا إليه الضرورة، بناء على ما ثبت لديهم من أصول دينية، وأسس علمية، قائمة على الصدق في القول، والإخلاص في العمل.

ثم تلاهم بعد ذلك: طائفة من المفسرين بدءًا بأتباع التابعين، ومن بعدهم بإحسان، حيث فسروا القرآن على صنوف من التفسير، منه: المأثور ومنه الرأي، وتعددت في ذلك مناهجهم، واختلفت طرائقهم، فكان منهم من عُنى بالتفسير المأثور فحسب دون الزيادة عليه، فاكتفوا به، ورأوا أن الأصوب هو الوقوف عند حدوده وعدم إضافة شيء إليه، مهما كان قدر هذا الزائد أو قيمته.

ومنهم من رأى أن الحاجة داعية إلى تفسير القرآن بالرأي، فعملوا على تفسير القرآن على أساسه مع عدم إغفال المأثور أيضا، لأنه الأصل في التفسير، إلا أن وجهة التفسير بالرأي تعددت باختلاف وجهة المفسرين أنفسهم، فكان الاتجاه إلى القول بالرأي منقسما إلى قسمين:

١- تفسير بالرأي المحمود.   ٢- تفسير بالرأي المذموم.

وعلى إثر ذلك: ظهرت تفاسير عدة من هذين النوعين، كان بين أصحابها خلاف شديد، وتنافر كبير وجاءت تفاسير الرأي المحمود في مقدمة التفاسير التي تلقتها الأمة بالقبول، لأنها قامت على المصداقية في التعبير، مع إخلاص النية قولا وفعلا وخلوّ من الأغراض الشخصية، والمقاصد المذهبية، لأنهم علموا أنهم يفسرون أعظم كلام، وأشرف تبيان.

وفي مقدمة تلك التفاسير: تفاسير أهل السنة والجماعة، الذين عُرفوا بالواقعية، واشتهروا بالمصداقية، واتسموا بالشفافية، في الوقوف عند حدود الشرع الحكيم، في تفسير الآيات دون ما خوض في مسائل من شأنها أن تجلب على المسلم التخبّط في القول، والتيه في غياهب العقل التي لا تؤدي

إلا إلى المهالك.

أما في الجانب الآخر: فقد جاءت تفاسير الرأي المذموم قائمة على أمور مهمة كانت هي الأساس في التفسير- عند أصحابها- والتي من خلالها برزت المسائل الخلافية بين المذاهب الإسلامية عموما، حيث جعل أصحاب هذا الاتجاه من تفسير القرآن بابا واسعا يعبّر من خلاله على ما ارتضوه من عقائد، وما التزموه من أصول مذهبية، وأفكار عقلية، كان لها وقعها الكبير على احتداد الخلاف بينهم وبين أصحاب التفسير بالرأي المحمود.

ومن أشهر من عمل في تفسير الكتاب بالرأي المذموم: فرقة المعتزلة(١) الذين شهدت كتبهم كثيرا من ذلك النوع من التفسير، بما يدل على تعصبهم لمذهبهم المعتزليّ، وتعنتهم فيه، بما يخدم أصوله وعقائده، ويظهر أمره على غيره من المذاهب المختلفة السبل، والمتعددة الاتجاهات.

فنرى المفسر المعتزليّ مثلا: يطبق القرآن على مذهبه في: الاختيار وما يتعلّق بالصفات ومسألة التحسين والتقبيح العقليين، ويؤّول ما لا يتفق ومذهبه وكذلك فعل غيرهم من الفرق الأخرى أمثال: الشيعة(٢) والخوارج(١)

(١) ومن نحا نحوهم من الفرق الباطلة - وسموا بذلك لاعتزالهم أقوال المسلمين في مرتكب الكبيرة حيث قالوا إنه لا مؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين المنزلتين، وقيل بسبب اعتزال واصل بن عطاء مجلس شيخه الحسن البصري عندما اختلف معه في مسألة مرتكب الكبيرة هذه - انظر: مقالات الإسلاميين ١/ ٢٣٥- الملل والنحل ١/ ٥٦.

(٢) الشيعة: هم الذين شايعوا عليّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته نصا ووصية إما جليا وإما خفيا، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقيّة من عنده، وقالوا إن الإمامة ركن الدين، وإن الأئمة معصومون =

والمرجئة[٢] كما هو حال كل صاحب مذهب حتى يسلم له مذهبه، وتتفق له مقاصده.

ومن أشهر كتب المعتزلة: التي نهجت هذا المنهاج تفسير:" **الكشاف** " للإمام أبي القاسم محمود بن عمر جار الله الزمخشريّ[٣] - رحمه الله تعالى- فعلى الرغم من أنه تفسير له قيمته وقدره بين التفاسير، إلا أن ما أودع فيه صاحبه من اعتزاليات بغيضة كانت فيه بمثابة الدم الفاسد في الماء العذب والنقطة السوداء في الثوب الأبيض، الأمر الذي جعل نظرة الأمة إليه نظرة

=

من الكبائر والصغائر، وهم فرق كثيرة منهم الغالي الكافر ومنهم من دون ذلك، ويطلق عليهم أحيانا: الرافضة- مقالات الإسلاميين ١/٦٥، ٦٦ .

(١) الخوارج: هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويجمعهم القول بالتبري من عثمان وعليّ كما أجمعوا - عدا النجدات منهم - على تكفير مرتكب الكبيرة وتخليده في النار إذا مات عليها، وفرق الخوارج تصل إلى عشرين فرقة ومن أسمائهم: الحرورية - راجع: مقالات الإسلاميين ١/ ١٦٧، ١٦٨- الفرق بين الفرق صـ ٧٢-٧٤

(٢) المرجئة: هم أصحاب القول بالإرجاء، وسموا بذلك لأنهم يؤخرون العمل عن النية والعقد، بمعنى أنهم يجعلون مدار الإيمان على المعرفة بالله، وأكثرهم يرون أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وهم أصناف وفرق كثيرة منهم مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية، والمرجئة الخالصة، ومنهم المغالي كالجهمية ومنهم دون ذلك، ويجمعهم القول بأن الأعمال ليست من الإيمان. مقالات الإسلاميين ١/ ٢١٣، ٢١٤ .

(٣) الزَّمَخْشَرِيّ: بفتح الزاي وسكون الخاء المعجمة وفتح الشين المعجمة وفي آخرها الراء - نسبة إلى زَمَخْشَر قرية من قرى خُوَارَزْم كبيرة - الأنساب للسمعاني ٣/ ١٨١ تحقيق محمد عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية بيروت - الأولى- ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

فحص ونقد، وبحث عن ما تضمنه من ضلالات وأباطيل، تمثلت فيما دسه من اعتزاليات عاش لها ومن أجلها ولولا وجودها لكان هذا التفسير من أعظم التفاسير التي دخلت المكتبة الإسلامية في أعظم الفنون وأكرمها وهو: تفسير القرآن الكريم، ولا يحملنا هذا القول إلى إغفال ما فيه من علوم العربية، والنكات البلاغية والفوائد التفسيرية الكبيرة، التي كانت فيه بمثابة الحلية الثمينة، التي تحلّى بها هذا الكتاب، وأعطته رونقا وجمالا، رغم ما وجّه إليه من نقد ومثالب(١).

خطة البحث:

اشتملت الخطة على مقدمة وتمهيد ومبحثين على النحو التالي:

المقدمة: وفيها الحديث عن خصوصية الأمة المحمدية بنزول القرآن الكريم عليها.

التمهيد: في بيان أهمية دراسة التفسير وعناية المفسرين به.

المبحث الأول: موقف المعتزلة من تفسير القرآن الكريم

وفيه مطالب:

المطلب الأول: التعريف بالمعتزلة ونشأتهم وأصولهم الاعتقادية، وأثر ذلك في تفسيرهم.

المطلب الثاني: منهج المعتزلة في التفسير وأشهر كتبهم فيه.

(١) جمع مَثْلَبة - بفتح اللام وضمها - وهي: العيوب - مختار الصحاح مادة: " ثلب ".

المبحث الثاني: الزمخشريّ وتفسيره الكشاف.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريف بالزمخشريّ المعتزلي وتفسيره الكشاف ومنهجه في تأليفه.

المطلب الثاني: عرض اعتزاليات الزمخشريّ في نماذج من تفسيره لسورة البقرة ومناقشته فيها.

الخاتمة: نسأل الله تعالى حسنها.

منهجي في البحث:

حرصت من أول وهلة في دراسة اعتزاليات الزمخشريّ وبيان حالها ما لها وما عليها من مآخذ فيما وقع عليه الاختيار من تفسيره لآيات من سورة البقرة كنموذج على اعتزالياته على أمور مهمة سرت عليها وتتلخص في مايلي:

١- ذكر الآية ذات العلاقة بالموضوع برقمها مع اسم السورة .

٢- نقل كلام الزمخشريّ مع تحريره ومطابقته على أكثر من طبعة حتى لا يحدث في نقله خلل، أو يعتريه غموض، ثم أتبعه بتعليق ابن المنيّر عليه موافقة أو معارضة، وبيان وجه الحق فيه، له أو عليه مصحوبا ذلك كله بالدليل والبرهان.

٣- مقابلة ما ذكره الزمخشريّ في تفسير النص المذكور مع غيره من علماء التفسير من أهل السنة والجماعة، واعتماد كلامهم كأدلة في الرد على

الزمخشريّ في اعتزالياته.

٥- خرّجت الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية كالصحيحين وبقية الكتب التسعة، وكتب التفسير المعنيّة بالتفسير المأثور مثل: الطبرىّ والبغوىّ والواحدىّ والسيوطىّ، والشوكانىّ، وكذا التفاسير التي جمعت بين المأثور والرأي مثل تفاسير: القرطبىّ، وابن العربىّ والألوسي وغيرهم.

٧- شرحت غريب الكلمات الواردة في نصوص النقول، معتمدا في ذلك على أمهات كتب اللغة والمعاجم.

هذه مع ما تقتضيه ظروف البحث من حذف وإضافة.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تمهيد

في أهمية دراسة التفسير وعناية المفسرين به

عُنى المسلمون الأوائل بدراسة تفسير القرآن الكريم دراسة وافية قائمة على الأصول العلمية، والأسس المنهجية التي كانت لهم بمثابة الطريق الواضح الذي سلكوه في رحلتهم مع كتاب ربهم- تبارك وتعالى- فقرأوا لفظه، وفهموا معناه، وعلموا به فعملوا بما فيه، واتبعوا أحكامه، ونفذوا أوامره، وأحلّوا حلاله وحرّموا حرامه، فكانوا به أساتذة الدنيا، وسادة العالمين، وبما أن القرآن الكريم: هو دستور الحياة المتكامل بكل ما تحمله الكلمة من معان، فهو أيضا كتاب علم ودراسة، وجبهة قويّة للعديد من العلوم والفهوم ومن هنا نشأت حوله دراسات متعددة، وبذلت فيه جهود مختلفة، كان المقصود منها: خدمة هذا الكتاب العظيم، والعمل على إبراز ما فيه من علوم ومعارف والوقوف على ما احتواه من أبواب علمية، ومسائل يحتاج إليها المسلم في حاضره ومستقبله.

من ذلك:

١- علم التفسير: وشرح الكلمات، وبيان المعاني للآيات، والوقوف على مراميه وتعيين مقاصده ومغازيه.

٢- علم القراءات القرآنية والتجويد: الذي يضبط به أداء لفظ القرآن، وبه حفظ لهجاته.

٣- علوم اللغة: التي بها يعرف اشتقاق اللفظ ومعناه.

٤- علم النحو: الذي به يُقوّم اللسان، ويعصم من الخطأ.

٥- علوم البلاغة الثلاثة: البيان والمعاني والبديع: التي من خلالها أمكن للعلماء إبراز أوجه الإعجاز اللفظيّ والمعنويّ للقرآن الكريم والكشف عن أسراره الأدبية، وتتبع مفرداته اللغوية، والتماس شواردها وتعيين شواهدها وضبط كلماتها.

٦- علم الأصول: لتقعيد القواعد الشرعية، ورصد المسائل الفقهية، وبيان طريقة استنباط الأحكام المختلفة.

٧- علم الكلام: لإظهار ما جاء فيه من عقائد إسلامية، وبيان طرق الاستدلال عليها.

ومن أبرز الجهود العلمية الراسخة في تفسير الكتاب: ما رأيناه في المفسرين الأوائل وإخلاصهم من بذل كل غال ونفيس في تفسير الآيات والسور حسب ما يراه من اتجاه معيّن، يخدم التفسير من ناحيته حتى برع فيه، وبلغ فيه مبلغا فأصبح تفسيره وما تضمنه من منهج، سمة ظاهرة عليه وعلامة بارزة فيه. فمن المفسرين من ركّز عنايته على التفسير المأثور واكتفى به وجعل كتابه ملتقي للروايات المأثور بأسانيد عدة، وطرق شتى كان لها أصل في الرواية وأساس في الدراية، حتى خرج تفسيره بهذه الصورة، معروفا بهذه الصفة وأصبح قبلة يقصدها كل من يريد البحث عن الروايات المأثور.

ومن أشهر كتب التفسير في ذلك: تفسير الإمام الكبير شيخ المفسرين أبي جعفر محمد بن جرير الطبريّ (ت٣١٠هـ) حيث إن كتابه القيّم:" جامع البيان عن تأويل آي القرآن" الذي يعد آية في بابه، ومعجزة في تأليفه وعلامة

في تصنيفه، حتى استحق أن يطلق عليه:" أعظم التفاسير".

وكذلك: تفسير الإمام أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازيّ (ت ٣٢٧ه) في كتابه:" تفسير القرآن العظيم" أو: " التفسير المسند عن رسول الله والصحابة والتابعين" حيث كان تفسيره مأثورا خالصا ليس فيه تفسير بالرأي البتة.

ومن المفسرين: من اتجه إلى تطبيق القواعد النحوية، وبيان إعراب الكلمات وبنائها، مثل: السمين الحلبي الشافعيّ(ت٧٥٦هـ) في كتابه: "الدر المصون في علوم الكتاب المكنون"، وتفسير الإمام سليمان بن عمر الجمل(ت ١٢٠٤هـ) في: "حاشيته على تفسير الجلالين" المعروفة بـ: "الفتوحات الإلهية".

ومنهم: من عَمِد إلى بيان النواحي البلاغية، وتعيين مواقع الإعجاز في القرآن مثل تفسير: "معاني القرآن " لأبي زكريا الفرّاء(ت ٢٠٧هـ) و:" معاني القرآن وأعرابه " لأبي إسحاق الزجاج(ت٣١١هـ) و:" معاني القرآن " لأبي جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ).

أيضا: كان منهم: من أخذ جانب الفقه والتشريع، وبيان أصول الأحكام، وما يبنى عليها من مسائل وأقوال، مثل: تفسير:" أحكام القرآن" للإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ) والجصاص (ت٣٧٠هـ) وابن العربي (ت٥٤٣هـ) و:"الجامع لأحكام القرآن" لأبي عبد الله القرطبيّ (ت٦٧١هـ) وغير ذلك.

ومنهم: من أخذ جانب التفسير الصوفيّ أو الإشاريّ، والذي يعتبر - بحق - من أهم أنواع التفسير التي عرفت على الساحة العلمية في مجال

الدراسات القرآنية المتعلقة بتفسير الكتاب، وله من رجالاته وعلمائه الكثير منهم: العلاّمة الإمام سهل ابن عبد الله التستريّ (ت ٢٨٣هـ) وقيل: (٢٧٣هـ) في كتابه: " تفسير القرآن العظيم" و:أبو عبد الرحمن السلميّ (ت ٤١٢هـ) في كتابه:" حقائق التفسير"- و: أبو القاسم القشيريّ (ت٤٦٥هـ) في تفسيره: "لطائف الإشارات" و:الإمام محيي الدين ابن عربي (ت ٦٣٨هـ) في تفسيره المعروف بـ:" تفسير ابن عربي" و:ابن عجيبة(ت١٢٢٤هـ) في كتابه:" البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" و:شهاب الدين محمود الألوسي المتوفى١٢٧٠هـ في تفسيره القيّم:" روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" وإن كان يعد أيضا من التفاسير التي جمعت بين المأثور والرأي أيضا.

واستمر الحال على ذلك على تمدد الزمان وتوالي السنون والأعصار: حتى ظهرت الفرق المختلفة، والمذاهب المتباينة أيام الفتنة بين علي ومعاوية وما بعدها فوجد من المفسرين والعلماء من يحاول نصرة مذهبه، والدفاع عن معتقده، بكل ما أوتي من قوة، وبما أتيح له من وسيلة وحيلة، مشروعة كانت أو غير مشروعة

ومن هذا المنطلق: بدأ الخروج عن دائرة الرأي المحمود، إلى دائرة الرأي المذموم، والوقوع في غياهبه التي لا تنتهي، حيث استفحل الخطر واشتد الخطب إلى حد أن أصحاب المذاهب المنحرفة جعلوا من تفسير القرآن أسلحة لهم، وأدوات بها يدافعون عن مذاهبهم واتجاهاتهم، في صورة ما أخرجوه للناس من تفاسير حملوا فيها كلام الله تعالى على ما يروق لهم ويتوافق مع أهوائهم، ويتمشى مع نزعاتهم، والأدلة على ذلك كثيرة ومتنوعة،

يراها من خَبَر تفاسير الفرق والمذاهب المنحرفة أمثال: المعتزلة والشيعة والخوارج بأصنافها، والمرجئة، وغيرهم.

المبحث الأول

موقف المعتزلة من تفسير القرآن الكريم

تعد فرقة المعتزلة من أشهر الفرق الإسلامية التي أخذت شهرة وذيوعا بين الأوساط المختلفة، وذلك لما عرف عنها من: تشدد عقديّ وتشبث أصوليّ، وعصبية كبيرة في الذود عن متجههم الاعتزاليّ الذي قام على أسس مذهبية، وأقوال متنوعة في مسائل متعددة بنوا عليها مذهبهم، ولا يكاد يخلوا تفسير من التفاسير المتقدمة، إلا وله دور في الحديث عن كثير من المسائل الخلافية التي دار حولها الجدال بين أهل السنة والمعتزلة، سواء منها ما هو دفاع عن أهل السنة وما ثبت لديهم من أصول منهجية وأسس علمية قائمة على بيان الحق، وتعيين الصواب في كل مسألة طرحت على الساحة العلمية أو كان الحديث عن المعتزلة كفرقة أو مذهب دعا إليه القدماء من أئمتهم، وكتبت فيه مؤلفات على منواله وانتهجت منهجه، وسلكت طريقه وأصبحت متخصصة في عرض الاعتزاليات وبثّها من خلال تلك النافذة ولا أدل على ذلك من:" **تفسير الزمخشريّ**" و:" **تنزيه القرآن عن المطاعن** " للقاضي عبد الجبار، وغيرهما.

أو كان الحديث عن الخلافيات أيضا من ناحية أخرى: وهي ما اتهم فيها بعض مفسري أهل السنة بالميل إلى الاعتزال، أو الرضي ببعض أقوالهم، ونقلها في تفاسيرهم، مثل ما رمي به أبو محمد بن عطية الأندلسيّ الغرناطيّ المتوفى ٥٤١هـ- وقيل- ٥٤٦هـ صاحب كتاب:" **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** " على الأشهر- وإن كان هو براء من تلك التهمة وتفسيره ملئ

بمعارضة الاعتزال وأهله والرد عليهم بالحجة والبرهان، وإبطال ما ذهبوا إليه في العديد من مسائل الخلاف ومن خبر تفسير ابن عطية يرى ذلك واضحا تماما[1].

(١) انظر في ذلك: منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم للدكتور عبد الوهاب فايد صـ ٢١٩-٢٦٢ ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية سنة ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

المطلب الأول

التعريف بالمعتزلة ونشأتهم وأصولهم الاعتقادية

وأثر ذلك في تفسيرهم

<u>من هم المعتزلة:</u> هم أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزَّال(١) الألْثغ(٢) المولود سنة ٨٠ هـ والمتوفى١٣١هـ، كان تلميذا للإمام الحسن بن أبي الحسن البصريّ، يقرأ عليه العلوم والأخبار ويقال لهم أيضا: الواصلية وأصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بـ:" القَدَرية"(٣) و:"العَدْلِيّة "(٤) وقد اشتهرت المعتزلة من بين جميع الفرق الإسلامية باعتمادهم على العقل والمنطق لا غير، في تحصيل مبادئ الإسلام ومعتقداته وأحكامه، ولربما ظن البعض أن المعتزلة قد ذهبت من غير ر جعة، وأن أفكارهم الجريئة لم يعد

---

(١) لقّب بـ:" الغزّال" لأنه كان يلازم الغزَّالين ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن- انظر: الكامل للمبرد ٣ / ٩٢١ .

(٢) الأَلْثَغُ: الذي لا يستطيع أَن يتكلم بالراء، وقيل: هو الذي يجعل الراء غيناً أَو لاماً، أَو يجعل الراء في طرَف لسانه، أَو يجعل الصاد فاء، وقيل: هو الذي يَتَحَوَّلُ لسانه عن السين إِلى الثاء- لسان العرب مادة:" لثغ ".

(٣) القدرية: هم القائلون بأن العبد يخلق أفعال نفسه، وأن أفعال العباد مقدورة لهم على جهة الاستقلال وكان متقدموهم ينكرون علم الله بالأشياء قبل وجودها، ومنهم معبد الجهنيّ وهم الذين كفرهم السلف، وأما متأخروهم فهم يثبتون العلم وينازعون في مرتبة الخلق، وهي فرقة متعددة الأصناف ومن أشهر فرقهم المعتزلة- انظر: مقالات الإسلاميين ١/ ٢٩٨ - الملل والنحل ١/٤٣ .

(٤) الملل والنحل ١/ ٤٣، ٤٦ بتحقيق محمد سيّد كيلاني ط الحلبي بالقاهرة ١٩٧٦م.

لها وجود على الساحة الإسلامية، وأن التوازن قد عاد لجدليّة العقل والنقل، إلا أن هذا الظن خاطئ تماما، لأن المذهب المعتزليّ بأفكاره المنحرفة، وجرأته البالغة، وتطاوله البغيض، ما زال موجودا حيّا في صدور كثير ممن اغترّ به وباتجاهاته ومكتوبا في السطور أيضا، وما زالت هناك فرق عديدة تتبناه، وإن اختلفت مسمياتها، فضلا عن انتصار كثير من المحدثين لمنهج الاعتزال في تقديم العقل على النقل، وجعله حاكما على نصوص الشريعة، قيّما عليها، فالاعتزال ما زال قائما مبثوثا في العقائد والأفكار، ولكن الذي ذهب هو حدّته وصولته بعد زوال دولته وتعرضه أيضا لعملية نقد متواصلة على أيدي أئمة أهل السنة وعلمائها الأفذاذ، فغدا هامدا يظنه الناس ميتا وليس بميت.

نشأتهم: نشأت هذه الفرقة في العصر الأمويّ، أيام عبد الملك بن مروان وبعده نجله هشام بن عبد الملك، إلا أنها شغلت الفكر الإسلاميّ في العصر العباسيّ ردحا طويلا من الزمان.

والسبب في قيام هذا المذهب هو: أن رجلا دخل على الحسن البصريّ فقال: يا إمام الدين، ظهر في زماننا جماعة يكفّرون صاحب الكبيرة- يريد وعيدية الخوارج - وجماعة أخرى يرجئون الكبائر ويقولون: لا تضرّ مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فكيف لنا أن نعتقد في ذلك؟ فتفكر الحسن، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق، ثم قام إلى أسطوانة[١] من أسطوانات

(١) هي: جذع نخل بالمسجد- اللسان :" سطو ".

المسجد، وأخذ يقرّر على جماعة من أصحاب الحسن ما أجاب به من أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، ويثبت له المنزلة بين المنزلتين قائلا: إن المؤمن اسم مدح، والفاسق لا يستحق المدح، فلا يكون مؤمنا وليس بكافر أيضا ؛ لإقراره بالشهادتين، ولوجود سائر أعمال الخير منه، فإذا مات بلا توبة خُلّد في النار، إذ ليس في الآخرة إلا فريقان: فريق في الجنة وفريق في النار، لكن يخفف عنه، وتكون دركته فوق دركات الكفار، فقال الحسن: اعتزلنا واصل، فلذلك سمي هو وأصحابه بـ:" المعتزلة "[(١)].

ويرى بعض العلماء: أن أول من قام بالاعتزال هو: أبو هاشم عبد الله والحسن بن محمد بن الحنفية، وعن أبي هاشم أخذ الاعتزال واصل بن عطاء[(٢)].

طوائف المعتزلة: هذه الفرقة، أو المذهب - عند من أطلق عليها ذلك - يعم طوائف كثيرة بأسماء مختلفة، تتفق في الأصول والمعتقدات، وتشترك في الباطل والترهات، منها:

١- الواصلية: أصحاب واصل بن عطاء:(٨٠- ١٣١هـ).

٢- الهُذَيْلِيّة: أصحاب أبي الهُذَيْل حمدان العلاّف:(١٣٥- ٢٢٦هـ).

٣- النِّظامية: أصحاب إبراهيم بن سيّار بن هانئ النظام:(١٦٠-٢٣١هـ).

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني١/ ٤٨ - التفسير والمفسرون١/ ٣٤٨ ٠

(٢) مقدمة تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعريّ صـ ١٠، ١١ ط دار الفكر دمشق سنة ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م

٤- الخابطية: أصحاب أحمد بن خابط:(ت ٢٣٢هـ).

٥- الحَدْثِيّة: أصحاب الفضل الحَدْثِيّ:(ت ٢٥٧هـ تقريبا).

٦- البِشْرِيّة: أصحاب بشر بن المعتمر:(ت ٣٢٦هـ).

٧- المُعَمَّرِيَة: أصحاب معتمر بن عباد السلميّ:(ت٢٢٠هـ).

٨- المرداريّة: أصحاب عيسى بن صبيحّ المكنّى بأبي موسى، والملّقب بـ:"المردار":(ت ٢٢٦هـ) تقريبا.

٩- الثُمامية: أصحاب ثُمامة بن أشرس النميريّ:(ت ٢٢٦هـ).

١٠- الهشاميّة: أصحاب هشام بن عمر الفوطي:(ت ٢٢٦هـ).

١١-الجاحظية:أصحاب عمرو بن بحر أبي عثمان الجاحظ:(ت٢٥٠هـ- وقيل: ٢٥٥هـ).

١٢-الخيّاطيّة: أصحاب أبي الحسين الخيّاط:(ت٣٠٠هـ) أستاذ أبي القاسم بن محمد الكعبيّ، وهما من معتزلة بغداد على مذهب واحد.

١٣- الكعبية: أصحاب أبو القاسم البلخيّ الكعبيّ:(٢٧٣-٣١٧، أو: ٣١٩هـ).

١٤- الجُبَّائية والبَهْشَمِيّة: أصحاب أبي عليّ محمد بن عبد الوهاب الجبّائيّ، وابنه أبي هاشم عبد السلام وهما من معتزلة البصرة[١].

وأشهر أهل الاعتزال: واصل بن عطاء الغزّال، صاحب مدرسة البصرة

(١) الملل والنحل ٤٦/١ - ٨٥ بتصرف واختصار.

وبشر ابن المعتمر، صاحب مدرسة بغداد، وكان بينهما جدال وخلاف كبيرين في كثير من المسائل.

أصولهم الاعتقادية: بنى المعتزلة مذهبهم على أصول خمسة هي: ١- **التوحيد**.٢- **العدل**. ٣- **الوعد والوعيد**. ٤- **المنزلة بين المنزلتين**.

٥- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** .

وهذه الأصول الخمسة: يجمع الكل عليها، وهي بمثابة الرخصة التي يدخل بها في المذهب من يريد أن يكون معتزليا، فمن لم يقل بها فليس معتزليا بالمعنى الصحيح.

يقول أبو الحسن الخيّاط، أحد زعماء المعتزلة في القرن الثالث الهجريّ:(وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا كملت هذه الخصال فهو معتزليّ)[(١)].

(١) تاريخ الجدل للإمام محمد محمد أبي زهرة صـ ٢٠٨ .

المطلب الثاني

منهج المعتزلة في التفسير وأشهر كتبهم فيه

فسّر المعتزلة القرآن الكريم بناء على أصولهم الخمسة التي عظّموها في نفوسهم وقدسوها في أقوالهم وأفعالهم، وكأنها نزلت من السماء، بل إنهم تركوا ما أجمع عليه الجمهور من أهل السنة والجماعة، الذين ساروا على ظاهر نصوص القرآن وبما يتوافق مع جلال الله تعالى ذاتا وصفاتا وأفعالا حيث ترك المعتزلة ذلك وذهبوا وراء العقل ليقودهم إلى مواطن الهلاك بإرادتهم، وسعوا وراء خرافات ابتدعوها من عند أنفسهم، متجاهلين في سبيلها كل طريق يمكن أن يعيدهم إلى الصواب، وينشلهم من أوحال العقل وما يؤدي إليه من بوار. **فكما حكّموا العقل**: في أصولهم الاعتقادية، كذلك نصّبوه إماما لهم، ومبيّنا للقرآن، شارحا لمراده، معيّنا لمقصوده، فما وافق العقل قبلوه، وما خالفه تركوه حتى فيما جاء من أحاديث تخالف مذهبهم وتظهر بطلانه، حيث قاموا هم بتأويل تلك الأحاديث تأويلا فاسدا ليوافق عقولهم ويتناسب مع اتجاههم المنحرف.

هذا: وقد وضّح شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- ما كان عليه المعتزلة من شطط وبعد عن الصواب في اتجاههم إلى العقل، واكتفائهم به في تفسير القرآن حيث قال:(إن مثل هؤلاء اعتقدوا رأيا ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين لا في رأيهم ولا تفسيرهم، وما من تفسير من تفاسيرهم

الباطلة إلا وبطلانه من وجوه كثيرة)[1].

يقول أستاذنا الدكتور محمد حسين الذهبيّ- رحمه الله تعالى-: (أقام المعتزلة مذهبهم على الأصول الخمسة التي ذكرنا آنفا، ومن المعلوم أن هذه الأصول لا تتفق ومذهب أهل السنة الذين يُعتبرون أهم خصومهم، لهذا كان من الضروريّ لهذه الفرقة- فرقة المعتزلة- في سبيل مكافحة خصومهم أن تقيم مذهبها وتدعم تعاليمها على أسس دينية من القرآن، وكان لابد لها أيضا أن ترد الحجج القرآنية لهؤلاء الخصوم وتضعف من قوّتها، وسبيل ذلك كله هو النظر إلى القرآن أولا من خلال عقيدتهم، ثم إخضاعهم عبارات القرآن لآرائهم التي يقولون بها وتفسيرهم لها تفسيرا يتفق مع نحلتهم وعقيدتهم)[2].

ولو نظرنا في بعض تلك الوجوه التي أشار إليها الإمام أحمد بن تيمية في نقلنا عنه هنا لرأينا أنها تنحصر فيا يلي:

١- **محاولة** إخضاعهم **عبارات القرآن الكريم**: لآرائهم التي يقولون بها وتفسيرهم لها حسبما يتفق ومعتقداتهم.

٢- إنكارهم **ما يعارضهم من الأحاديث الصحيحة**: مهما كانت درجة صحتها.

وهذا:- والحق يقال - ليس ديدن جميعهم، بل هو حال الجلّ منهم، وقد خالف الزمخشريّ ذلك بشدة، ووقف موقف الحق والصواب، حيث استشهد في تفسيره بكثير من أحاديث سيّدنا رسول الله ﷺ وبأقوال

(١) مقدمة في أصول التفسير صـ ٢٢ .

(٢) التفسير والمفسرون ١/٣٥١، ٣٥٢ .

الصحابة والتابعين، واعتمد في تفسيره على كثير من التفسيرالمأثور، وبخاصة ما لا يصطدم مع مبادئه الاعتزالية، ولعل هذا الصنيع منه يعد ميزة له عن شركائه المعتزليين الذين لم يفرقوا بين غث وسمين، وبين حق وباطل. **ومن الأمثلة**: على حال الإمام جار الله الزمخشريّ مع الأحاديث والآثار: ما ذكره عند تفسير قوله تبارك وتعالى:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**}[الأحزاب ٤١،٤٢] قال:(أثنوا عليه بضروب الثناء من التقديس والتحميد والتهليل والتكبير وما هو أهله، وأكثروا ذلك " **بُكْرَةً وَأَصِيلاً** " أي: في كافة الأوقات. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" **ذكر الله على فم كل مسلم**"[1] وروي: " **في قلب كل مسلم**"[2] وعن قتادة: قولوا سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم"[3] وعن مجاهد: هذه كلمات يقولها الطاهر والجنب[1]

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الكاف الشاف ٣ /٥٤٥ بهامش الكشاف على هذا الحديث: "لم أجده بهذا اللفظ". وروي الدارقطني والبيهقيّ وابن عديّ من حديث أبي هريرة قال:" سأل رجل رسول الله ﷺ الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي؟ قال:" إسم الله على فم كل مسلم "وفيه مروان بن سالم وهو ضعيف جدا " أ.هـ- وانظر: سنن الدار قطني جـ٤ صـ ٢٩٥ ط دار المعرفة بيروت، وقال الدارقطني عقبه: مروان ابن سالم ضعيف.وقال ابن نافع: اسم الله على فم كل مسلم" أ.هـ- سنن البيهقيّ الكبرى ٢٤٠/٩ -الكامل في ضعفاء الرجال لابن عديّ ترجمة مروان بن سالم ٦ / ٣٨٥ ط دار الفكر بيروت وقال ابن عديّ عقبه:"عامة حديثه مما لا يتابعه الثقات عليه "أ.هـ.

(٢) سكت عنه ابن حجر، ولم أقف عليه في شئ من مصادر الحديث- والله أعلم.

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ منسوبا إلى قتادة، وله شاهد من طريق مجاهد وعكرمة عن ابن عباس قال: جاء الفقراء إلى رسول الله فقالوا: يا رسول الله: إن الأغنياء يصلون كما =

والفعلان:أعني:" **اذْكُرُوا** " و:" **سَبِّحُوا** " موجهان إلى البكرة والأصيل كقولك: صم وصل يوم الجمعة)[٢].

فهذا: مثال حيّ يدل على أن الزمخشريّ قد خالف غيره من المعتزلة في هذه الجزئية المتعلّقة بالاستشهاد بالأحاديث، وإن كان فيما ذكره ضعف من ناحية السند كما هو واضح بالحاشية هنا.

٣- إدعاؤهم **أن محاولاتهم في التفسير**: مرادة لله تعالى، فكل من اجتهد رأيا أو وصل إلى قول في التفسير هو مراد الله تعالى في الآية المذكورة، فإذا اجتهد في حادثة مثلا فالحكم عند الله تعالى في حق كل واحد مجتهد[٣] ورفضوا أن يكون للآية التي تحتمل أوجها تفسيرا واحدا لا خطأ فيه، وحكموا على جميع محاولاتهم التي حاولوها في حل المسائل الموجودة في القرآن بأنها مرادة لله تعالى.

٤- **تجرؤهم على المتواتر من القراءات، واستبدالها بالشاذ**. وللأسف: فإن المعتزلة تلاعبوا في صحيح بعض القراءات لأنها لا تتوافق مع

=

نصلي، ويصومون كما نصوم ولهم أموال يعتقون ويتصدقون؟ قال: فإذا صليتم فقولوا سبحان الله ثلاثا وثلاثين مرة، والحمد لله ثلاثا وثلاثين مرة، والله أكبر أربعا وثلاثين مرة، ولا إله إلا الله عشر مرات، فإنكم تدركون به من سبقكم ولا يسبقكم من بعدكم " سنن الترمذي كتاب الدعوات باب "ما جاء في التسبيح في أدبار الصلاة " حديث ٤١٠ جـ ٢ صـ٢٦٤ - النسائي في المجتبى حديث ١٣٥٣ جـ ٣ صـ ٧٨

(١) تفسير البغوي ١/ ٣٦٠ .

(٢) تفسير الكشاف ٣ /٥٤٥ ط الريان.

(٣) التوضيح ٢/ ١١٨ بتصرف يسير.

عقيدتهم، ولا تتمشى مع مذهبهم، فعمدوا إلى استبدال القراءات الصحيحة بالشاذة وغيّروا في تشكيل بعض الكلمات. **فمثلا**: عند تفسير قوله تبارك وتعالى:﴿ **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴾[النساء ١٦٤] برفع اسم الجلالة:" **اللَّهُ** "على أنه فاعل التكليم لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأن المصدر جاء مؤكدا للفعل رافعا لاحتمال المجاز، وهذا ما عليه أهل الحق، أهل السنة والجماعة، وهم متفقون على ذلك.

أما المفسّر المعتزليّ: فيرى أن هذه الآية بهذا التركيب لا تتفق ومذهبه الاعتزاليّ، فيعمد إلى تحويل النص إلى ما يتوافق مع اعتزاله، ويتمشى مع عقيدته التي لا يتخلى عنها مهما كان الأمر، وعلى أيّ حال كان، فيقرأ الآية هكذا: "**وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَى تَكْلِيمًا** " بنصب اسم الجلالة: "**اللَّهَ**" على أنه مفعول، ورفع: "**مُوسَى**" على أنه فاعل، وبعض المعتزلة يُبقي اللفظ القرآنيّ على وضعه المتواتر، إلا أنه يحمله على معنى بعيد حتى لا يبقى مصادما لمذهبه فيقول:(إن:" **كَلَّمَ** "بمعنى الجرح فالمعنى: وجرح الله موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن)[1] وصنع المعتزليّ هذا ليغيّر من ظاهر النظم الذي يصادم عقيدته ويخالف هواه.

وهذا الذي ذكرناه إنما هو من صنيع المغالين الضالين من أهل الاعتزال، وأما المعتدلين منهم فقد وقفوا أمام تلك التأويلات الباطلة بالمرصاد، وردوها على أصحابها، معلنين خطأهم، وبعدهم عن الحق

---

(١) انظر: الكشاف ١/ ٥٨٢ .

والصواب. **ومن ذلك**: ما حدث من الزمخشريّ حينما عرض لذلك في كشافه حيث رواه عمن قال به عندما تكلّم عن هذه الآية، إلا أنه لم يقبله، بل عارضه بشدة وحكم عليه بالابتداع فقال:(وعن إبراهيم ويحيى بن ثابت أنهما قرأ:" **وَكَلَّمَ اللَّهَ** " بالنصب "- ثم قال مندّدا بالرأي الثاني-: ومن بدع التفاسير أنه من الكَلْم، وأن معناه: وجرح الله موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن)[1].

٦- **المبدأ اللغويّ وأهميته في التفسير عندهم**: تأتي اللغة في المرتبة الأولى مع العقل في مقياس التفسير عند المعتزلة، حيث إنهم يجعلونها مع العقل سلطانهم الذي من خلاله يتجهون نحو تفسير الآيات القرآنية التي لا يليق ظاهرها بمقام الألوهية، أو العبارات التي يحتوي مفهوما الظاهر على تشبيه، أو تصادم بعض أصولهم، فإنهم في هذه الحالات[2].

أشهر كتبهم في هذا الفن: يعتبر المذهب المعتزلي أقل المذاهب خطرا على الدين، إذا ما قورن مع غيره من المذاهب الأخرى مثل: الخوارج- بمسمياتها المختلفة- والقدرية، والمرجئة، وغير ذلك.

والمذهب الاعتزالي: فيه شيء من الاعتدال متمثلا في بعض علمائهم الذين نظروا في بعض البنود الاعتزالية وتحوّلوا عنها، ورأوا بعين فاحصة وجه الصواب في غيرها، مع أننا نعيب عليهم ما تشبثوا به من أصول اعتزالية فاسدة وتأويلات باطلة، بنوا عليها غالب ما ورد عنهم من تفسير حيث كانت

---

(١) المصدر السابق.

(٢) راجع: التفسير والمفسرون ١/ ٣٥٥ .

لهم بمثابة الخطوط الأصيلة التي يسيرون عليها، ولا يجوز تخطيها أو إغفالها بحال.

وقد ألّف علماء المعتزلة: في كثير من الفنون والعلوم المختلفة ومن أبرزها علم: " **التفسير**" وكان من أشهرهم كتبة فيه:

١- **أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم**:(ت٢٤٠هـ) صاحب:" المقالات في الأصول "قال الداودي: له تفسير عجيب، وقال ابن النديم: إنه ألف تفسيرا للقرآن الكريم "[١].

٢- **محمد بن عبد الوهاب بن سلام أبو عليّ الجبّائيّ**:(ت ٣٠٣هـ) رأس المعتزلة وشيخهم وكبيرهم، ومن انتهت إليه رياستهم، كان رأسا في الفلسفة والكلام، له مقالات وتصانيف منها:" **التفسير**" و:" **متشابه القرآن**" كذا قال الداودي[٢] وقال السيوطيّ:له مقالات مشهورة وتصانيف وتفسير[٣].

٣- **أبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخيّ**: المعروف بـ:"الكعبيّ " (ت٣١٩هـ) صاحب التصانيف في علم الكلام، قال الخطيب: من متكلمي المعتزلة البغداديين[٤] ونقل الداودي في طبقاته أنه صنف تصانيف كثيرة منها:"

(١) طبقات المفسرين للداودي١/ ٢٧٤، ٢٧٥- لسان الميزان ٣ / ٤٢٧.

(٢) طبقات المفسرين للداودي ١٩١/٢، ١٩٢ وانظر: النجوم الزاهرة ٣ /١٨٩ ٠

(٣) طبقات المفسرين للسيوطيّ صـ ٨٨، ٨٩ .

(٤) تاريخ بغداد ٩ / ٣٨٤ .

التفسير الكبير للقرآن العظيم"[١]٠

٤- **أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائيّ**:(ت٣٢١هـ)قال السيوطيّ: من رؤوس المعتزلة له تصانيف، و:" تفسير" رأيت مننه جزءا "[٢] وهو أيضا من التفاسير التي لم تقع أيدي العلماء عليها.

٥- **أبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني**:(ت٣٢٢هـ) ويقال له: أبو سلمة[٣] صنف تفسيرا اسمه:" **جامع التأويل لمحكم التنزيل**" يقع في أربعة عشر مجلدا، وقيل: في عشرين مجلدا، وقد أشار ابن النديم إلى هذا التفسير في كتابه: الفهرست[٤] وذكره السيوطيّ في بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة[٥].

٦- **أبو الحسن عليّ بن عيسى الرماني**:(ت٣٨٤هـ) كان يعرف بـ:" الإخشيدي- الورّاق " وهو بـ:" الرماني" أشهر، كان إماما في العربية علامة في الأدب، في طبقة الفارسيّ والسيرافيّ معتزليا[٦] قال السيوطي: صنف تفسيرا رأيته[٧]٠

---

(١) طبقات المفسرين للداودي ٢٣٠/١ .

(٢) طبقات المفسرين للسيوطيّ ٨٨، ٨٩ - وانظر: طبقات المفسرين للداودي ١ / ٣٠٧ .

(٣) كما في لسان الميزان ٥/ ٨٩ - وطبقات المفسرين للداودي ١٠٩/٢ .

(٤) الفهرست صـ ٥٠ .

(٥) بغية الوعاة صـ ٢٣ .

(٦) طبقات المفسرين للداودي ٤٢٤/١ .

(٧) طبقات المفسرين للسيوطيّ ٦٩ .

٧- **عبيد الله بن محمد بن جرو الأسديّ**: أبو القاسم النحويّ العروضيّ المعتزليّ:(ت ٣٨٧هـ) قال السيوطي: من أهل الموصل وصنف كتبا منها:" **تفسير القرآن** " ذكر في بسم الله الرحمن الرحيم مائة وعشرين وجها"[١].

٨- **القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمدانيّ**:(ت٤١٥هـ) وهو الذي تلقبه المعتزلة بـ:" **قاضي القضاة** " ولا يطلقون هذا اللقب على سواه، ولا يعنون به عند الإطلاق غيره[٢] صنف تفسيره المشهور: " **تنزيه القرآن عن المطاعن**" وهو مطبوع متداول بين أهل العلم، إلا أنه لم يفسر جميع آيات القرآن الكريم.

٩- **الشريف المرتضي**: أبو القاسم عليّ بن الطاهر:(ت ٤٣٦هـ) أخو الشريف الرضي، وشيخ الشيعة ورئيسهم بالعراق، وكان مع تشيّعه معتزليا[٣] كتب بحوثا فيّاضة في بعض آيات القرآن الكريم التي تضاد مذهب المعتزلة، ووفق بين ظاهر النظم الكريم والعقيدة الاعتزالية ونجد هذه البحوث التفسيرية ضمن ما دوّنه في أماليه التي سماها: "**غرر الفوائد ودرر الفرائد**"[٤].

١٠- عبد **السلام بن محمد بن يوسف القزويني**: شيخ المعتزلة:(ت٤٨٣هـ)

---

(١) طبقات المفسرين للسيوطيّ صـ ٦٣ .

(٢) طبقات المفسرين للداودي ١/ ٢٦٢ - طبقات الشافعية ٩٧/٥ - مرآة الجنان ٢٩/٣ .

(٣) وفيات الأعيان ١٤/٢ وما بعدها.

(٤) التفسير والمفسرون ١ / ٣٦٧ .

نقل السيوطيّ عن السمعاني قوله:(جمع:" **التفسير الكبير**" الذي لم ير في التفاسير أكبر منه ولا أجمع للفوائد، لولا أنه مزجه بكلام المعتزلة وبثّ فيه معتقده، وهو في ثلاثمائة مجلد، منها سبع في الفاتحة)[1].

١١- أبو **القاسم جار الله محمد بن عمر الزمخشريّ**:(ت ٥٣٨هـ) صاحب التفسير المشهور والمعروف بـ: "**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**".

يقول الدكتور الذهبي:(فسّر القرآن تفسيرا عظيما جدا، لولا ما فيه من نزعات الاعتزال، وهو أشمل ما وصل إلينا من تفاسير المعتزلة)[2].

تلك هي أشهر تفاسير المعتزلة ومصنفاتهم في أعظم الفنون وهو علم:" التفسير " ولم يبق منها على الساحة العلمية، رؤية بالبصر، ودراسة بالعين والقلم إلا ثلاثة كتب هي:

١- **الكشاف للزمخشريّ**.

٢- **تنزيه القرآن عن المطاعن** للقاضي عبد الجبار .

٣- **آمال الشريف المرتضي**.

والله تعالى أعلى وأعلم.

---

(١) طبقات المفسرين للسيوطيّ ص٥٦، ٥٧ - وانظر طبقات الداودي١/ ٣٠٨، ٣٠٩ - تاريخ قزوين ٣٥٨ - تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٠٨ - راجع: مجموع الفتاوى ١٣ / ٣٥٧ .

(٢) التفسير والمفسرون ١/ ٣٦٧ .

المبحث الثاني

الزمخشريّ وتفسيره الكشاف

لا شك أن تفسير العلاّمة الإمام جار الله الزمخشريّ قد أخذ من الشهرة والذيوع ما جعله عنوانا على تفسير المعتزلة، وممثلا لهم في تعيين اتجاههم في هذا المجال، مع بيان أصولهم الاعتقادية كأساس في مذهبهم، إذ يشترط فيمن يكون معتزليّا أن يعمل بما ذكر عنهم من أصول، وأن يتحلّى بما ورد فيها من أسس قائمة ومعارف راسخة، ومفاهيم ثابتة، لا يمكن زحزحتها أو التنازل عنها، وهذا ليس بجديد في حال المذاهب والفرق الإسلامية التي أعلنت عن مبادئها، تشبثا بها وتمسكا على أيّ حال، دون ما نقاش أو جدال.

والزمخشريّ: يعد من أبرز علماء المعتزلة - إن لم يكن أبرزهم على الإطلاق- الذين كتبوا في:" علم التفسير" وذاع صيتهم فيه، وكان وقع ما ذكره في تفسيره له عظيم الأثر في نفس من قرأه ممن لا يعرف حاله وموقفه من الاعتزال، وقد أخذ كتابه:" **الكشاف** " مكانة عليا بين كتب التفسير المعنيّة بالرأي، رغم سكنى الاعتزاليات فيه، ولولاها لكان تفسيره من أعظم التفاسير.

المطلب الأول

التعريف بالزمخشريّ المعتزلي وتفسيره الكشاف ومنهجه في تأليفه

اسمه: محمود بن عمر بن محمد الخوارزميّ[(١)] الزمخشريّ[(٢)] الحنفيّ المذهب المعتزليّ العقيدة، الملقّب بـ:"جار الله" المكنى أبا القاسم"[(٣)].

مولده: ولد يوم الأربعاء السابع عشر من رجب سنة ٤٦٧هـ بزَمَخْشَر وتتلمذ على يد كبار علماء بغداد، ورحل إلى بلاد كثيرة، وما دخل بلدا إلا وأقبل عليه أهلها وتتلمذوا له، وما ناظر أحدا إلا وسلّم له، واعترف له بالفضل والعلم. وكان منذ نشأته نابغة شديد الذكاء، وقد شهد له كل من عرفه بالإمامة في التفسير والحديث والنحو والأدب واللغة[(٤)] وكان يجاهر

---

(١) نسبة إلى خُوارزم - بضم الخاء وقيل بفتحها - منطقة معروفة تقع على ضفاف نهر جيحون - كما في معجم البلدان ٢/ ٤٥٢ - وهي الآن تتبع تركمانستان وأوزبكستان بجمهوريات الكومنولث الإسلامية - دائرة المعارف الإسلامية ٤٧٧/٨ .

(٢) بفتح أوله وثانيه ثم خاء معجمة ساكنة وشين معجمة وراء مهملة- قرية جامعة من نواحي خوارزم - معجم البلدان ٣ / ١٤٧ ط دار الفكر بيروت - الأنساب للسمعاني ١٨١/٣ - وقد نقل السمعاني عن السيد أبي الحسن عليّ بن عيسى حمزة الحسني قوله:

جميع قرى الدنيا سوى القرية التي *** تبوأها دار فداء زمخشرا

وأحر بأن تزهى زمخشر بامرئ *** إذا عد في أسد الشرى زمخ الشرى

(٣) لقّب بذلك لأنه جاور بمكة زمانا حتى عرف بهذا اللقب.

(٤) سير ١٥٢/٢٠- تذكرة الحفاظ ١٢٣٨/٤- النجوم الزاهرة ٢٧٤/٥- وفيات الأعيان ٢٥٤/٤ ط دار صادر بيروت- طبقات المفسرين للداودي ٣١٤/٢ - ٣١٦ - شذرات =

باعتقاد مذهب المعتزلة ويتظاهر به ويفخر، حتى نقل عنه أنه كان إذا قصد صاحبا له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له أبو القاسم المعتزليّ بالباب[١].

علمه ومنزلته: تبوأ جار الله الزمخشريّ مكانة عليا بين المفسرين والعلماء، وشهدت له مؤلفاته بالسبق والتقدم، وذاع صيته وعلا قدره في علوم شتى من أبرزها: التفسير، والبلاغة والمعاني والبيان، وكان يقصده الداني والقاصي. قال شمس الدين الداوديّ:(كان واسع العلم، كثير الفضل، غاية في الذكاء وجودة القريحة متفننا في كل علم، معتزليا قويّا في مذهبه، مجاهرا به، داعية إليه حنفيّا، علاّمة في الأدب والنحو[٢] وقال السمعاني:(كان ممن برع في الأدب والنحو واللغة، لقي الكبار وصنّف التصانيف، ودخل خراسان عدة نُوَب[٣] وما دخل بلدا إلا واجتمعوا عليه وتتلمذو له، وكان علامة الأدب، ونسّابة العرب، تضرب إليه أكباد الإبل)[٤] وقال أيضا:(كان يضرب به المثل في علم الأدب والنحو، لقي الأفاضل والكبار، وصنف التصانيف في التفسير، وشرح الأحاديث وفي اللغة)[٥].

= الذهب ٤/١١٨، ١١٩ .

(١) وفيات الأعيان ٥/١٧٠ .

(٢) طبقات المفسرين للداودي ٢/٣١٥ .

(٣) أي: عدة مرات. قال في المختار: " نَوبَ " اسم منه و الجمع: نُوَبٌ مثل قرية وقرى وتَنَاوَبُوا عليه تداولوه بينهم يفعله هذا مَرَّةً وهذا مَرَّة ".

(٤) الأنساب ٣/١٨١- ونقله الذهبيّ في سير٢٠/ ١٥٥ .

(٥) الأنساب ٣/١٨١ .

وقال العلامة ابن خلكان:(كان إمام عصره، وكان متظاهرا بالاعتزال داعية إليه)[1] وقال الشمس الداودي:(له التصانيف البديعة منها:" الكشاف" في التفسير و:"الفائق" في غريب الحديث، و:" أساس البلاغة " و:" المفصّل" في النحو و:" المقامات " و:" المستصفى في الأمثال") [2] وغير ذلك.

وفاته: توفي الزمخشريّ - رحمه الله تعالى- ليلة عرفة سنة ٥٣٨هـ بجُرجانية خوارزم، بعد رجوعه من مكة[3].

(١) وفيات الأعيان ٥/ ١٦٨ .

(٢) طبقات المفسرين للداودي ٢/ ٣١٥، ٣١٦ .

(٣) شذرات الذهب ٤/١٢٢- وانظر: لسان الميزان ٦ /٤ .

المطلب الثاني

تفسير الكشاف ومنهج مؤلفه فيه

يعد تفسير الزمخشريّ من أهم مصادر التفسير التي ألّفت في القرنين الرابع والخامس الهجريين وقد أخذ مكانة مرموقة بين كتب التفسير بصفة عامة، وتفاسير المعتزلة بصفة خاصة، ولولا أن علماء أهل السنة والجماعة- أعني المفسرين منهم- قد عرفوا للزمخشري قدره كمفسّر، ومكانته كعالم من أشهر علماء التفسير في زمانه، ما التفتوا إليه ولا إلى تفسيره، ولما نقلوا منه شيئا، إلا أنهم كانوا على حذر منه شديد، وحيطة كبيرة في الأخذ من هذا الكتاب المملوء بالاعتزاليات التي شوهت صورته كتفسير، وجعلته موقعا للنظر والفحص، وجبهة للنقد والبحث، مع أنه قد تضمن العديد من ألوان البلاغة، وأنواعا من الفصاحة، وضروبا من فنون الكلام مع براعة في التفسير، ومهارة في التأويل، وإن كان بعض العلماء قد حرّم النظر فيه مخافة الوقوع في اعتزالياته والاغترار بدسائسه.

نقل الحافظ ابن حجر في لسان الميزان عن أبي محمد بن أبي حمزة في شرحه للبخاري قال:(لما ذكر قوما من العلماء يغلطون في أمور كثيرة قال: ومنهم من يرى مطالعة كتاب الزمخشريّ ويؤثره على غيره من السادة كابن عطية ويسمى كتابه الكشاف تعظيما له)[1].

اسمه: عرف هذا التفسير باسم:" **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**" وهو من الشهرة بمكان، وقد جاءت تسمية هذا

(١) لسان الميزان ٦ / ٤ .

التفسير بهذا الاسم على لسان الزمخشريّ نفسه، حيث قال معتزا به، ومتحدثا بنعمة الله تعالى عليه فيه:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد *** وليس فيها لعمري مثل كشافي

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته *** فالجهل كالداء والكشاف كالشافي[1]

سبب تأليفه: ثبت أن الزمخشريّ كتب تفسيره هذا لسبب مهم وهو: الانتصار لمذهبه الاعتزاليّ، وتأييد أصوله التي تشبث بها من خلال ترويج آرائهم وأفكارهم التي لا تقبل النقاش أو الجدال - في نظرهم-.

إضافة إلى وجود سبب آخر في تأليف هذا الكشاف وهو: أن المعتزلة في عصره كانوا قد دعوه وطلبوا منه بإلحاح، أن يؤلِّف لهم تفسيرا يخدم الاعتزال وأصوله، ويرسّخ قواعده، ويقوي أسسه، واستشفعوا إليه في ذلك بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد[2] كي ينفذ لهم مطلبهم، وما زالوا به حتى قام بتنفيذ مطلبهم، ومن خلال ذلك التقت رغبته الشخصية السابقة لتأليف تفسير له، مع طلب أعيان المعتزلة لهذا الأمر في نسق واحد. **ولا أدل على ذلك**: من أن الزمخشريّ في مقدمة تفسيره قد نوّه بالمعتزلة وأشاد بفضلهم، ووصفهم بأنهم من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية، والأصول الدينية[3].

قال في مقدمة كشافه: (ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة

(١) كشف الظنون ١٧٣/٢ .

(٢) انظر: مقدمة الكشاف ١/ ١٨ .

(٣) انظر: مقدمة الكشاف ١ /١٧ - ٢٠ .

الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطردوا شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم: "**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**" فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد، والذي حداني على الاستعفاء علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه عليّ واجبة، لأن الخوض فيه كفرض العين، ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله، وركاكة رحاله وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلا أن تترقى إلى الكلام على علمي: المعاني والبيان ...)(١).

تاريخ تأليفه:

جاء تحديد التاريخ لكتابة هذا السفر على لسان الزمخشريّ وبخطه في نسخته الأصلية التي كتبها بيده حيث يقول فيها:(فرغت منها يد المصنف تجاه الكعبة في جناح دار السليمانية التي على باب أجياد الموسومة بمدرسة العلامة، ضحوة يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر في عام ثمانية وعشرين وخمسمائة)(٢).

يقول الدكتور مصطفى الصاوي الجويني:(وقد ذكر الزمخشريّ في

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكشاف ٤ /٨٢٥ بواسطة كتاب:" المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف في ضوء ما ورد في كتاب الانتصاف لابن المنيّر " لصالح بن غُرم الله الغامدي ١/ ٤٤ ط دار الأندلس للنشر والتوزيع بحائل - السعودية- الثانية - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

مقدمة الكشاف[1] أنه فرغ منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيكون قد بدأ في تأليفه الكتاب سنة ٥٢٦هـ وهي السنة التي عاد فيها إلى مكة في جواره الثاني الذي مكث فيه ثلاث سنين)[2].

قيمته العلمية: يقول الشيخ الدكتور الذهبي تعليقا على شعر الزمخشري الذي قاله مدحا في كشافه: (وإذا كان الزمخشريّ قد اعتز بكشافه، وبلغ إعجابه إلى حد جعله يقول فيه ما قال من تقريظ له وإطراء عليه، فإننا نعذره في ذلك ولا نلومه عليه، فالكتاب واحد في بابه، وعلم شامخ في نظر علماء التفسير وطلاّبه، ولقد اعترف له خصومه بالبراعة وحسن الصناعة، وإن أخذوا عليه بعض المآخذ التي يرجع أغلبها إلى ما فيه من ناحية الاعتزال)[3] .

ويقول الدكتور الشيخ محمد محمد أبو شهبة في كتابه:" الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير" ما نصه:(إن تفسير الكشاف من خير كتب التفسير وأجلها، ولولا نزعته الاعتزالية في بعض الآيات القرآنية لما تناوله المعترضون بالنقد ولما أشنأه بعض الناس، وبحسب هذا الكتاب فضلا ومنزلة: أن كل من جاء بعد الزمخشريّ عالة عليه فيما يذكره فيه من أسرار البلاغة، والغوص على المعاني البلاغية الدقيقة، ولبراعته في الكلام، وتمكنه من فنون القول، وبُعْد غوره يدس بعض آرائه في أثناء تفسيره، وتروج على

---

(١) مقدمة الكشاف ١/ ٢١، ٢٢ .

(٢) منهج الزمخشريّ في تفسير القرآن وبيان إعجازه للدكتور مصطفى الصاوي الجويني صـ ٧٦ ط دار المعارف بمصر - الثالثة ٠

(٣) التفسير والمفسرون ١/ ٤٠٩ .

خلق كثير من أهل السنة ولذا قال البلقيني: استخرجت من الكشاف اعتزالا بالمناقيش[1])[2] وهذا ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يقول: (ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة يدس البدع في كلامه، وأكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشاف ونحوه حتى إنه يروّج على خلق كثير من أهل السنة كثير من تفاسيرهم الباطلة)[3].

وبغض الطرف قليلا عن اعتزاليات الزمخشريّ: نرى أن تفسيره فيه من الميزات ما لم يسبق إليه، حيث كشف فيه عن وجوه إعجاز القرآن الكريم، وأظهر فيه من جمال النظم القرآنيّ وبلاغته، وهذا منهج دعا إليه الزمخشريّ ونفذه في تفسيره حيث قال:(من حقّ مفسّر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز، أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليما من القادح[4] يضاف إلى ذلك أنه تميّز أيضا بـ: خلّوه من الحشو الطويل: وإقلاله من الأخبار الإسرائيلية والقصص الواهية: وسلوكه طريقة السؤال والجواب: والاعتماد في بيان المعاني وعنايته الفائقة بالإبانة عن أسرار الإعجاز القرآنيّ: و إظهار أوجه القراءات المختلفة وبيان خوافي المعاني اللغوية للفظة القرآنية: وإظهاره بعض الدقائق التفسيرية: والمعاني الخفية التي لم يسبق إليها.

---

(١) الإتقان ٢/ ١٩٠ .

(٢) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير صـ ١٣١ .

(٣) مقدمة في أصول التفسير صـ ٣٨ .

(٤) نقله السيوطيّ في الإتقان ٤/ ١٧٨ - وانظر: الكشاف ١/ ١٨٩ .

موقف العلماء من اعتزاليات الزمخشريّ في تفسيره الكشاف:

إذا كان قد شهد كثير من العلماء للزمخشريّ بالعلم والفضل والسبق في تفسيره وإحاطته بفنون اللغة والبلاغة، وكشفه عن الصور الجمالية في النظم الكريم ووجوه الإعجاز فيه، الخ، فقد عمل جملة من العلماء على بيان المواقع السلبية في تفسير الزمخشريّ أيضا، وعابوا عليه اعتزاله الذي كان يرمي به من طرف خفيّ أثناء كلامه في تفسير الألفاظ العربية، وبناء المعاني عليها.

فهذا ابن خلدون يقول في مقدمته:(ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب: الكشاف للزمخشريّ من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلّفه من أهل الاعتزال في العقائد، فيأتي بالحِجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرّض له في آي القرآن من طرق البلاغة، فصار ذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه، وتحذير للجمهور من مكامنه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلّق باللسان والبلاغة، وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنيّة، محسنا للحجاج عنها، فلا جرم إنه مأمون من غوائله، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان، ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي[1] من أهل توريز من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشريّ هذا وتتبع ألفاظه وتعرّض لمذاهبه في

(١) الحسين بن محمد بن عبد الله شرف الدين الطيبي من علماء الحديث والتفسير والبيان له مصنفات منها:" البيان في المعاني والبيان" و:" شرح مشكاة المصابيح " و:" مقدمة في علم الحساب " توفي سنة ٧٤٣هـ- الدرر الكامنة ٢/ ٦٨ - بغية الوعاة ١/ ٥٢٢ ٠

الاعتزال بأدلة تزيفها، ويبيّن أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة. وفوق كل ذي علم عليم)[١].

ويقول الحافظ ابن حجر عند ترجمته لجار الله: (الزمخشريّ المفسّر النحويّ، صالح لكنه داعية إلى الاعتزال، أجارنا الله فكن حذرا من كشافه)[٢] وقال أيضا:(وأما التفسير فقد أولع الناس به وبحثوا عليه، وبينوا دسائسه وأفردوها بالتصنيف، ومن رسخت قدمه في السنة، وقرأ طرفا من اختلاف المقالات انتفع بتفسيره، ولم يضره ما يخشى من دسائسه)[٣].

منهج الزمخشريّ في تفسيره:

قلنا أن الزمخشريّ ثبتت إمامته في اللغة والنحو، وأنواع البلاغة الثلاثة وجهوده في كشافه لا تنكر، رغم ما فيها من آراء فاسدة، وأقوال باطلة، إلا أننا نرى في منهجيته في تفسيره بعض المظاهر التي أحاطت بالكتاب من أوله إلى آخره على نسق واحد، وبطريقة متسقة، وقد عرف عنه أنه يعتمد في تفسيره على ضروب من التأويل، والمجاز، والتمثيل، فيحمل ما ظاهره التنافي مع العقل أو الأصول المتلقاة من الشرع، على ضرب من التمثيل والاستعارة والمجاز الأمر الذي أثار عليه علماء أهل السنة والجماعة، ناعين عليه تصريفه لظواهر آيات القرآن الحكيم إلى ما أقره العقل وقال به، مؤكدين

(١) المقدمة صـ٤٩١ - وانظر: تاريخ ابن خلدون ١ /٥٥١ .

(٢) لسان الميزان٦ /٤ .

(٣) المصدر السابق.

على أن العقل لا يمكن الاعتماد عليه في كل شئ ولا يركن إليه في أمور الشرع خاصة.

ويمكن أن نلخص أهم النقاط المنهجية في تفسير الكشاف فيما يلي:

١- العناية بالأوجه البلاغية في تفسيره.

٢- عنايته بإيراد القراءات القرآنية وتوجيهه المعاني المختلفة من خلالها.

٣- موقفه من الحقيقة والمجاز.

ما أخذ عليه من مآخذ في تفسيره:

هناك بعض المآخذ الخطيرة التي تعد عليه لا له، والتي كانت بمثابة وجود العنصر السلبي المؤثر على رونق تفسيره، والمعكر لصافي شرابه، والمغتم لظاهر بيانه.

من تلك المآخذ:

١- أنه شحن كتابه بالأفكار الاعتزالية المتنوعة الاتجاهات.

٢- كان الزمخشريّ قليل البضاعة في علم الحديث.

٣- جرأته البغيضة في الكلام عن النبيّ الأعظم سيّدنا محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعبارات تشوبها الغلظة، ويحيط بها الجفاء، ويغشاها سوء الأدب: وذلك حين عرض لتفسير آيات بشأنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حيث قال فيها كلاما لا يليق بحال أن يوجّه إلى الحضرة النبوية، وكذلك فعل الزمخشريّ: فيما يتعلق بقصة سيّدنا آدم وسيّدنا نوح عليهما السلام- من وجود ألفاظ قبيحة، وشطحات شنيعة، وإساءات بذيئة، سجلها عليه العلماء، وذلك حين فسّر الآيات الواردة في قصتهما، وكذا **نقده اللاذع للقراءات القرآنية**

المتواترة: حيث يعتبر الزمخشري عنوانا على مفسري المعتزلة الذين نقدوا القراءات، واتخذوا منها موقفا سلبيا بصورة مشينة، إضافة إلى أنه واحد من جملة النحويين الذين نقدوا القراءات القرآنية مثل سيبويه والكسائيّ والفراء والمبرّد والزجاج وشاركهم في ذلك بعض علماء أهل السنة مثل أبي جعفر الطبريّ والبيضاوي وغيرهم[1] إلا أن الزمخشريّ قد حاز الكم الأكبر من النقد والتجريح من قبل علماء وأئمة انتفضوا للقرآن وقراءاته ودافعوا عنها، وعن قدسية وجودها في التنزيل الحكيم، الأمر الذي جعلهم ينظرون في الكشاف لرصد ما فيه من اعتزاليات من جهة، ومن نقد للقراءات من جهة أخرى، وما هذا إلا دفاعا عن القراءات ببيان جرأة الزمخشريّ على الطعن فيها وتلحين قرائها، والتصدي له بالنقد اللاذع والاتهام الخطير.

وقد سُجِّل على فريق من العلماء والباحثين تأثرهم بنقد الزمخشريّ للقراءات وأخذوا به دون نقاش أو جدال، أو أنهم تعاطفوا معه تعاطفا يؤدي إلى الخبط والاضطراب في موضوع القراءات، وعليه يمكن لنا القول بأن موقف المفسرين والباحثين من نقد الزمخشري للقراءات انقسم إلى موقفين اثنين هما:

الأول: موقف طائفة أخرى تعقبت نقد الزمخشريّ بالنقاش الحاد، والرد الشديد، مع التحامل عليه أحيانا، وأبرز من يمثل هذه الطائفة: أبو حيان الأندلسيّ:(ت٧٤٥هـ)وشهاب الدين الخفاجي:(ت١٠٦٩هـ) والكازروني والألوسي وبعض الباحثين المعاصرين.

---

(١) انظر: كتاب سيبويه١٧٠/٢ - ٣٨٨/٤ - المقتضب ١٧١/٢ - معاني القرآن للزجاج ٦/٢ - ٤/ ٦٠ - معاني الفراء ٣/٢، ٢٦٦/٧٢- تفسير الطبري ٤٣/٨ و٤٤ .

الثاني: موقف طائفة تتسامح مع الزمخشريّ في نقده للقراءات وتروي نقده مسلّمة به في غير عباراته القاسية، ومن غير هجوم عليه بالنقد أو التجريح، ولعل خير من يمثل هذه الطائفة المفسرين الجليلين: العلامة البيضاوي:(ت ٦٨٥هـ) والإمام النسفيّ:(ت٧٠١هـ) وبعض المعاصرين أيضا.

يضاف إلى ذلك من المآخذ: هجومه المتوحش على خصومه من أهل السنة، حيث لم يدع فرصة اثناء تفسيره إلا و قذفهم بقذائف لاذعة، وقرعهم بمقامع دامغة.

جهود العلماء حول تفسير الكشاف:

من خَبَر تفسير الزمخشريّ رأى بوضوح أن اعتزالياته في كشافه منها ما هو ظاهر يعرفه العام والخاص، ومنها ما هو خفيّ لا يعرفه إلا الخبير به وبصاحبه، وذلك لما عُرِفَ به الزمخشريّ من حسن صياغة للألفاظ، ودقة في التعبير، وبراعة في الأداء، بما يمكن له من خلاله أن يقول ما يشاء، ويدوّن ما يريد من آرائه الاعتزالية بطريقة قائمة على الدهاء والحنكة، ودسّ السم في العسل إلا أن الله تعالى قد قيّض للزمخشريّ من يرصد عليه اعتزالياته في تفسيره الكشاف، ويبيّن ما فيها من انحراف في الاتجاه، وفساد في المعنى، وميل باللفظ القرآنيّ إلى مذهبه الاعتزاليّ الذي يعتنقه.

وبعد طول بحث وقفت - بحمد الله تعالى-: على عدة جهود علمية في صورة مؤلفات، وأبحاث، وتحقيقات، وتعليقات لكثير من العلماء في هذا المجال وكلها عمدت إلى رصد الاعتزاليات الزمخشرية والعمل على ردها ودحضها بكل قوة وبيان، مع ذكر الأدلة والبراهين على ما يذكَر، كلما لزم

الأمر ذلك.

ولعل أبرز تلك الجهود هو:

١- ما كتبه الإمام العلاّمة أحمد بن محمد بن منصور بن المنيّر عالم الإسكندرية وقاضيها وخطيبها:(٦٢٠-٦٨٣هـ)[١]حيث ألّف حاشيته القيّمة المسماة بـ: " الانتصاف من صاحب الكشاف" والتي عرفت باسم:" الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال "وهي مطبوعة بهامش تفسير: "الكشاف " وقد عرف العلماء لابن المنيّر قدره ومكانته العلمية الفائقة، وأثنوا عليه بما هو له أهل. قال ابن دقيق العيد: (ما يقف في البحث على حد)[٢] وقال الشمس الذهبيّ:(قاضي الإسكندرية وفاضلها المشهور)[٣] وقال السيوطيّ:(كان إماما في النحو والأدب والأصول والتفسير وله اليد الطولى في علم البيان)[٤].

٢- تأليف الإمام العلامة: السُّكونِيّ أبي عليّ عمر بن محمد بن أحمد المالكيّ المقرئ: (ت ٧١٧هـ)[٥] كتابه القيّم: "التمييز لما أودعه الزمخشريّ من الاعتزال في تفسير الكتاب العزيز" قدمت له وحققته: الزهراء الخوتاري[٦]

(١) الأنساب للسمعاني ٢٠٩/٣ - الديباج المذهب١/٢٤٥ .

(٢) نقله السيوطيّ في بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ٣٨٤/١ .

(٣) العبر في خبر من غبر ٣٤٢/٥ .

(٤) بغية الوعاة ٣٨٤/١ .

(٥) طبقات الشافعية الكبرى ٩/ ٩- كشف الظنون ٤٨٥،٤٤٩/١ - ١٤٨٢/٢ - طبقات المفسرين للأَدْنروي ٤٣٢ - هدية العارفين ٧٨٨/١ - تاريخ الأدب العربي ٢٢٤/٥ ٠

(٦) دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب جامعة محمد إمام الإسماعيلي بالرباط - المغرب.

وقام بتحقيقه أيضا: السيد يوسف أحمد إبراهيم ط دار الكتب العلمية بيروت٠

٣- ما قدمه حافظ عصره ابن حجر العسقلاني:(ت ٨٥٢هـ) من تأليف كتابه:" الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف" وهو رسالة اختصر فيها رسالة الزيلعيّ:(ت٧٧٢هـ) في تخريج أحاديث الكشاف لبيان الروايات الموضوعة والأخبار الضعيفة، وقد طبع هذا الكتاب بهامش الكشاف أيضا٠

٤- كما ألّف الإمام السبكيّ ورقة سماها:"الانكفاف عن قراءة الكشاف" لما وجد في الكشاف من التعرض لشخص النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في موضعين من كشافة[1] ونقل بحر العلوم السيوطي في إتقانه عن العلامة الإمام البُلْقِيْنِي قوله: (استخرجتُ من الكشّاف اعتزالاً بالمناقيش منها أنه قال في قوله تعالى:{**فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**}[آل عمران ١٨٥] وأيّ: فوز أعظم من دخول الجنة ؟ أشار به إلى عدم الرؤية)[2].

٥- كذلك وجدتُ جملة من الجهود العلمية القيّمة حول تفسير: الكشاف لعدد من الأئمة الفضلاء، والعلماء النجباء في القديم والحديث كان من أشهرها ما يلي: -

أ- "الإنصاف في مختصر الانتصاف لشرح الكشاف " للعلامة نور

(١) في قوله تعالى:" عَفَا اللَّهُ عَنْكَ " - التوبة ٤٣- و قوله ﷻ :" يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ "- التحريم ١ .

(٢) الإتقان ٥٠١/٢ .

الدين علي أبي الحسن الأنصاريّ العراقي - وهو كتاب مخطوط [1].

ب- كتاب:" اختصار كتاب الانتصاف من الكشاف " للإمام ابن هشام عبد الله بن يوسف بن أحمد أبو محمد جمال الدين الحنبليّ المصريّ (٧٠٨ - ٧٦١هـ) مخطوط [2].

جـ- "الانتصاف في شرح الكشاف " للشِّيرازي محمود بن مسعود بن مُصلح، قطب الدين الشافعيّ:(٦٣٤ - ٧١٠هـ(مخطوط[3].

د- "اعتراضات الأَقْسَرائي على كشاف الزمخشريّ " للإمام الأَقْسَرائي: محمد بن محمد بن جمال الدين حفيد الفخر الرازي: (ت بعد ٧٧٦هـ(مخطوط[4] ذكر كحالة أن وفاته سنة ٧٧١هـ[5].

٦- هناك تعليقات على شروحات كشاف الزمخشريّ: لملاّ خُسرو محمد بن فرامُرز بن علي، الحَنَفيّ الروميّ:(٨٨٥هـ)

---

(١) هكذا ورد الكتاب منسوباً للمؤلف المذكور في نسخته المحفوظة في مكتبة آيا صوفيا برقم: ٧٨ ولم يمكن التحقق من هو المؤلف، أوالقطع بصحة نسبة الكتاب إليه- معجم الدراسات القرآنية ٢١٧ .

(٢) كشف الظنون ١٤٧٧/٢- طبقات المفسرين للأَدْنروي ٢٩- هدية العارفين ٤٦٥/١ - تاريخ الأدب العربي ٢٢٣٠/٥

(٣) راجع: طبقات المفسرين للأدنروي صـ ١٩٩ - تاريخ الأدب العربي ٢١٧/٥ ٠

(٤) معجم المؤلفين ٦٢٧/٣ - الفهرس الشامل" التفسير وعلومه" ٤٢٣ .

(٥) معجم المؤلفين ٦٢٧/٣ .

مخطوط[1].

٧- **كذلك**: عمل بعض العلماء على تجريد الكشاف من الاعتزال كما فعل العلامة الإمام النسفيّ في تفسيره:"**مدراك التنزيل**" حيث جعل على وجود فكر الزمخشري البلاغيّ، وحذف منه كلمة:" الفنقلة " والذي يقرأ تفسير النسفيّ يجده خالياً من الاعتزال بصورة مرضية.

٨- **هناك بعض الحواشي على الكشاف لعدد من المؤلفين منها:**

١- "حاشية الزُّهاوي على كشاف الزمخشري"[2] للزُّهاوي. "حاشية على تفسير سورة الملك من كشاف الزمخشري" لمحمد الصادق[3].

٢- "حاشية على شرح التفتازاني على كشاف الزمخشري " لمنار زاده[4].

٣- "حاشية على كشاف الزمخشري "للمقريمي أوالقريمي[5].

٤- "حاشية على كشاف الزمخشري" الهَمَذاني: فضل[6].

٥- "حاشية على كشاف الزمخشري " للعُكْبَري عبد الله بن الحسين بن

---

(١) الفهرس الشامل" التفسير وعلومه" صـ ٥٠٢ .

(٢) المصدر السابق صـ ٨٥٨ .

(٣) المصدر السابق صـ ٨٨٦ .

(٤) المصدر السابق صـ ٨٩٣ .

(٥) المصدر السابق صـ ٨٩٢ .

(٦) المصدر السابق ٩٠٠ - ولعله: رشيد الدولة أبو الفضل فضل الله بن أبي الخير علي الهمذاني المتوفى سنة٧١٦هـ.

عبد الله أبي البقاء محب الدين الحنبلي:(٥٣٨ - ٦١٦هـ) مخطوط[١].

٦- "الحاشية على كشاف الزمخشري" للأنِسي: صالح بن داود اليمني الحدقي:(١٠٦٢هـ) مخطوط، جمعه من حاشية يحيى بن القاسم العلوي:(ت ٧٥٠هـ) وغيرها[٢].

٧- "حاشية على كشاف الزمخشريّ " لعماد الدين عماد الدين يحيى بن القاسم بن عمرو اليمني:(ت٧٥٠هـ) إذ له حاشيتان على الكشاف[٣].

٨- " حاشية على كشاف الزمخشري " للرضي- مخطوط[٤].

٩- "حاشية على كشاف الزمخشري" للأنطاكي: يوسف بن حسن بن علي جمال الدين العربي الحلبي مخطوط[٥].

١٠- " حاشية على كشاف الزمخشري " الأَرْدَبيلي- مخطوط[٦].

١١- "حواش على كشاف الزمخشري وعلى أنوار التنزيل للبيضاوي وعلى

---

(١) المصدر السابق صـ٢٤١ - وفيه أنه نسب في فهرسة مدرسة مصلى إلى:" أبي البقاء" فحسب؟.

(٢) هِجَر العلم ومعاقله في اليمن ٤٤٦/١ ، الفهرس الشامل " التفسير وعلومه " صـ٦٩٤.

(٣) الفهرس الشامل " التفسير وعلومه " ٨٧٣.

(٤) لعله: رضي الدين ابن أبي اللطف محمد بن يوسف المقدسي الحنفي (ت١٠٢٨هـ) وانظر: الفهرس الشامل" التفسير وعلومه" ٨٥٨ .

(٥) معجم الدراسات القرآنية ٢٨٨ ، الفهرس الشامل " التفسير وعلومه" ٨٣٩ .

(٦) الفهرس الشامل " التفسير وعلومه" ٨٣٦ - لعله: غني زاده جمال الدين محمد بن عبد الغني بن مير شاه الأردبيلي المتوفى سنة١٠٣٦هـ.

إرشاد العقل السليم لأبي السعود " للمَيْموني إبراهيم بن محمد بن عيسى، أبو إسحاق برهان الدين الشافعيّ المكيّ: (٩٩١ - ١٠٧٩هـ)- مخطوط[١].

١٢- "رسالة على حاشية السيد الشريف على كشاف الزمخشري " للأَماسي: يوسف بن حسام الدين بن إلياس، بن سِنان الدين الحَنَفي الرومي: (٨٩٣ - ٩٨٦هـ) مخطوط، وهو رسالة على حاشية عليّ بن محمد الجرجاني:(ت:٨١٦هـ)[٢].

الدراسات الأكاديمية على تفسير الكشاف: عمل بعض الباحثين الأكاديميين على إخراج بعض البحوث والدراسات القرآنية المتعلقة الكشاف وما يلحق من حواشي وتعليقات لخدمة الموضوع من أبرزها ما يلي:

١-"منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه " للدكتور مصطفى الصاوي الجويني رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة الإسكندرية ١٩٥٤م وطبع ككتاب بدار المعارف في مصر سنة ١٩٥٩م.

٢- "المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف للزمخشري في ضوء ما ورد في كتاب الانتصاف لابن المنيّر عرض ونقد" رسالة ماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة أجيزت للدكتور صالح بن غُرم الله الغامدي بكلية أصول الدين جامعة الإمام بالرياض بتاريخ١١/٢/ ١٤١٧هـ وقد طبعت في مجلدين عام ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م وط - ثانية سنة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م نشر دار

(١) الفهرس الشامل" التفسير وعلومه"٧١٦- ٧١٧ .

(٢) المصدر السابق ٦٣٨ .

الأندلس بحائل.

٣- "منهج الزمخشري في أساس البلاغة " رسالة ماجستير لأسعد علي جامعة دمشق سوريا ١٩٩٧م.

٤- "المسائل النحوية في الآيات القرآنية بين الزمخشري وابن هشام النحو والقرآن " لجبران بن أحمد آل صالح ماجستير كلية اللغة العربية قسم النحو والصرف وفقه اللغة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٩٨٣م - ٩٩٣٤ ط الرياض بالسعودية .

٥- "الزمخشري ومنهجه في توظيف القراءات القرآنية" عبد الرحيم مرزوق دبلوم الدراسات العليا التهامي الراجي الرباط - المغرب كلية الآداب سنة ١٩٩٠م.

٦- "القرآن الكريم مصدرا للقوانين البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني والزمخشري والسكاكي" حسني يوسف - رسالة دكتوراه بالجامعة الأردنية ٢٠٠١م.

٧- "المحاكمات بين أبي حيان والزمخشري وابن عطية للشاوي دراسة وتحقيق إلى نهاية سورة يوسف "رسالة دكتوراه للباحث ناجي محمود حسين عبد الجليل بالجامعة الإسلامية كلية اللغة العربية قسم اللغويات سنة ١٤٢٠هـ.

٨- "المسائل النحوية في الآيات القرآنية بين الزمخشري وابن هشام" جبران بن أحمد آل صالح رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وفي كل عصر ومصر: تجد من يقف أمام تفسير الزمخشريّ ناقدا

له في اعتزلياته من ناحية ومستفيدا منه في غير ذلك من ناحية أخرى، بما أودعه من أسرار بيانية، ووجوه لغوية، وأبواب أدبية٠وغير ذلك.

المطلب الثاني

عرض اعتزاليات الزمخشريّ في الحزب الثاني من سورة البقرة ومناقشته فيها

يجد الباحث في تفسير الكشاف نفسه في حيرة من أمره، حيث يرى أن الصورة العامة لهذا التفسير صورة مشرقة، مليئة بالعديد من المباحث اللغوية والصور البلاغية، والأسرار البيانية، مع الجهد الكبير في الكشف عن خوافي المعاني، وعوالي المقاصد، مع تمكن في شرح اللفظ القرآنيّ وتفسيره على طريقة السؤال المتبوع بالجواب، والوصول في نهاية الأمر إلى رصد معلومة قيّمة يمكن الاعتماد عليها والأخذ بها، إلا أنه في المقابل: يصدم القارئ لكتاب الكشاف بكم هائل من الاعتزاليات التي حشا بها أبو القاسم تفسيره، وأصبحت محل نظر وفحص ونقد ممن يعرفون حاله، ويرصدون انحرافاته عن طريق الجادة التي اشتهر بها في هذا المجال وإصراره عليها، عن طريق المكر والدهاء، لذا عمل العلماء قديما وحديثا على تعيين تلك الاعتزاليات، وبيان مواقعها، وردها بالحجة والبرهان، مع الحرص على تعقب صاحبها في كل جزيئة منها، كبيرة كانت أو صغيرة حتى يحذرها القارئ المسلم، ويكون على خُبر كبير ومعرفة تامة في التعامل مع الزمخشريّ فيما ذهب إليه من اعتزاليات باطلة، وتوجّهات هالكة. وفي هذا المطلب: سأقتصر- إن شاء الله تعالى-على ذكر وجوه الاعتزال وتعيينها في آيات من سورة البقرة، والتي عرضها أبو القاسم من خلال تفسيره لآيات السورة الكريمة، حسب ما استقرّ

عنده من عقائد مذهبية، بنى عليها ما رآه من تفسير للنصوص تصريحا أو تلميحا، وإن كان غالب أمره في بث اعتزالياته على طريقة دّس السم في العسل، بحيث لا يفطن له إلا الخبير بحاله والعارف باتجاهه الاعتزاليّ وطريقته في الترويج له بكل أسلوب، وبأيّ وسيلة، وكثير من الأئمة الفضلاء، والعلماء النجباء برع في رصد اعتزاليات الزمخشريّ ونبّه إليها، أمثال: أبي محمد عبد الحق بن عطية، وأبي حيّان الأندلسيّ وأبي عبد الله القرطبيّ، وأبي البركات النسفيّ، وابن المنيّر، والبُلْقِينيّ، والسكونيّ وغيرهم من أهل الشأن، كما أن استخراج الاعتزاليات الزمخشرية تحتاج إلى جهد كبير، وقراءة متأنية في تفسير الكشاف، والنظر فيما ذكره العلماء والمفسرون في تفسير نفس الآيات التي عرض لها أبو القاسم في كشافه هذا٠والله الموفق والمعين.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن اعتزاليات الزمخشريّ لم تقتصر على المتعلّق منها بالأصول الاعتقادية فقط، بل كان منها أيضا مسائل كثيرة متنوعة ذات علاقة وثيقة باللغويات، وصلة كبيرة بالبلاغيات، مع امتداد مفعولها إلى المفهوم العام للآيات القرآنية، من حيث العموم والخصوص في المعنى المراد من اللفظ، وتأويل الآيات حسب رؤيته الشخصية في التفسير بالرأي على طريقة المعتزلة، وذلك من أجل الركون إلى ما يراه من تأويل، وترسيخ ما يرتضيه من تفسير اعتقد أنه هو الصواب دون غيره من الأقوال٠وهكذا.

كذلك نجد: أن ما كتبه العلامة ابن المنيّر في كتابه:" **الانتصاف** " في تعقّبه لصاحب الكشاف، أنه لم يكن عمله فيه قاصرا على تعيين المواضع الاعتزالية المتعلقة بالعقائد فحسب، بل كان جهده في كتابه هذا متصلا بكل ما رآه من اعتزاليات زمخشرية متعددة الاتجاهات، ومختلفة الأساليب، سواء

كانت عقدية، أو غيرها، مما كان له الأثر الفعّال لتلك الزمخشريات في تحويل مسارات المعاني والمفاهيم لكثير من آيات القرآن الكريم في عموم تفسير الكشاف، إلى وجهات اعتزالية لا مبرر لها، مما دعا ابن المنيّر إلى التعامل معها جميعا.

هذا وقد قصدت في دراسة اعتزاليات الزمخشريّ ودحضها إلى: أن أسير على منهج الإمامين: أحمد بن المنيّر، وعمر بن محمد السكونيّ، في تعقبهما الزمخشريّ في تفسيره خطوة بخطوة، إلا إذا ظهر لي شئ آخر غير مذكور في:" الانتصاف " أو:" التمييز" وله اتصال مذهبيّ على منوال المعتزلة، ولو من طرفيّ خفيّ، سواء كان متعلقا بأمور العقيدة أو بغيرها، وذلك حسب توفيق الله - تبارك وتعالى- لي.

وقد اكتفيت بدراسة مواضع خمسة من سورة البقرة لرصد ما جاء في تفسيرها عند الزمخشري لرؤية ما قاله ودحضه وكيفية الرد عليه بالحجة والبرهان على النحو التالي:-

١- **قوله تعالى:** ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ** ﴾ (البقرة ٧٥).

٢- **قوله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ (البقرة ٨٨).

٣- **قوله تعالى:** ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ** ﴾ (البقرة٩١).

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ١٠٣).
٥- قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ (البقرة ١١٣)

العرض والدراسة مع المناقشة:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة ٧٥]. قال الزمخشريّ: (الخطاب لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين:" **أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ** " أن يحدثوا الإيمان لأجل دعوتكم، ويستجيبوا لكم كقوله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت ٢٦] يعني: اليهود)[١].

المناقشة والتعليق:

يدخل هذا التفسير في مسألة خلق أفعال العباد، وهي من المسائل العويصة التي تعرض لها المعتزلة وقالوا فيها ما قالوا، واستقر رأيهم على: إن الإِنسَان يخلق أفعال نفسه، والله تعالى لم يخلق في الإِنسَان الشر، ولم يرد منه أن يفعل الشر، وإنما الإِنسَان هو الذي يخلق المعاصي ويخلق فعل نفسه ويقولون: إن هذا تنزيه لله جَلَّ جَلَالُهُ وهذا من توحيد الله[٢]. هكذا قالوا، مع أن هذا - في الحقيقة - شرك، لأن إثبات خالقيْن ليس توحيداً، وإنما هو الشرك

(١) الكشاف ١/ ٢٩١ .

(٢) راجع: الملل والنحل٧٤/١ للشهرستاني تحقيق محمد سيد كيلاني ط دار المعرفة بيروت ١٤٠٤هـ- ٠٧٩ ·

بعينه، كما كانت الثنوية المجوس يثبتون إلهين، فقالوا- أي المعتزلة-: إن الإِنسَان يخلق فعل نفسه، ويستدلون بقوله تعالى:{**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**}[الرعد ١٦] عَلَى أن القُرْآن مخلوق، فيقال لهم: لماذا لم تدخلوا أفعال المخلوقات في عموم كل وقد قال الله تعالى:{**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**} [الصافات ٩٦] فالله تعالى خلق المخلوقات، وخلق أفعالهم وكلمة:" **كُلِّ شَيْءٍ**" هنا تشمل أفعال المخلوقات وأنتم تنكرون ذلك، ومثل هذا فعل **عمرو بن عبيد**[1] الذي كَانَ يظهر التنسك والزهد والعبادة الشديدة، فجاءه أعرابيّ فرآه في تلك الحالة فقال له: إن ناقتي قد سُرقت، فادع الله أن يردها لي، فرفع عمرو بن عبيد يده فقَالَ: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقة هذا الأعرابي، اللهم فارددها عليه، فالأعرابي عَلَى سذاجته لا يفهم شيئاً، لكن بفطرته قَالَ: لا حاجة لي في دعائك، قال عمرو: ولِمَ؟ قَالَ: أخشى ما دام أنه لم يرد أن تسرق فسرقت أن يريد أن ترد فلا ترد[2] فالعقل السليم **الفطريّ**: يرد أقوالهم هذه جميعاً، فهم يريدون أن ينزّهوا الله بأنه لا يريد الشر ولا يخلقه، فهذه السرقة مثلاً يقولون: لا يريدها الله ولم يقدّرها ولم يخلقها وإنما العبد هو الذي يفعل.

وجار الله الزمخشريّ: كان هو المترجم لعقيدة المعتزلة في بثّه رأيها وتسجيله إياه في تفسيره فيما يتعلق بهذه المسألة، وغيرها أيضا، حيث عرض لها في مواطن عديدة من كتابه عند شرحه للآيات المتعلقة بالموضوع، وفي

---

(١) عمرو بن عبيد الزاهد العابد القدري كبير المعتزلة مات بطريق مكة ١٤٣هـ وقيل: ١٤٤هـ- تاريخ بغداد ١٢/ ١٦٢- ١٧٨- سير٦ / ١٠٤- مروج الذهب ٣/ ٣١٣ .

(٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة لابن بطة ٢٨٠/٢ تحقيق د.عثمان عبد الله آدم الأثيوبي ط دار الراية- الرياض- الثانية - ١٤١٨هـ.

كل مرة يؤكد ما قاله في المرة السابقة لها، وربما أتى بالمزيد من العبارات المختلفة التي تدور في فلك واحد وهو الدعوة إلى القول بخلق العباد أفعالهم بأنفسهم.

أما أهْل السُّنّةِ وَالْجَمَاعَةِ فيقولون: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو خالق الإِنسَان وخالق أفعاله، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل للإنسان إرادة مخلوقة خلقها الله ولذلك يُحاسِب ويجازي عَلَى نتيجتها، وهذا الرجل من شدة تمسكه بمذهبه لم يرد أن يتخلّى عنه حتى وهو يدعو للأعرابي، وأراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يفضحه عَلَى يد ذلك الأعرابي الذي لم يتعلّم علم الكلام، وليس هو من أهل العلم بالكتاب والسنة، وإنما توسم في عمرو بن عبيد الخير، ورأى فيه علامات الزهد فطلب منه الدعاء، فبيّن له الأعرابي بعد أن سمع دعاءه أنه عَلَى هذا الأصل الفاسد• نسأل الله تعالى معافاته من كل باطل. قال العلامة الإمام ابن القيّم مبيّنا مذهب أهل الحق في تلك المسألة:(وكل حيّ يفعل فعلا فإن فعله بقوة فيه على الفعل وهو في حول من ترك إلى فعل، ومن فعل إلى ترك، ومن فعل إلى فعل، وذلك كله بالله تعالى لا بالعبد، ويؤمنون بأن من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأنه هو الذي يجعل المسلم مسلما والكافر كافرا، والمصلّي مصلّيا، والمتحرك متحركا، وهو الذي يسيّر عبده في البر والبحر، وهو المسيّر والعبد السائر، وهو المحرك والعبد المتحرك، وهو المقيم والعبد القائم، وهو الهادي والعبد المهتدي، وأنه المطعِم والعبد الطاعم، وهو المحيي المميت، والعبد الذي يحيى ويموت، ويثبتون مع ذلك قدرة العبد وإرادته واختياره وفعله حقيقة لا مجازا، وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول، كما حكاه عنهم البغويّ وغيره، فحركاتهم واعتقاداتهم

أفعال لهم حقيقة، وهي مفعولة لله سبحانه مخلوقة له حقيقة، والذي قام بالرب علمه وقدرته ومشيئته وتكوينه، والذي قام بهم هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم، فهم المسلمون المصلون القائمون القاعدون حقيقة، وهو سبحانه هو المُقْدِر لهم على ذلك، القادر عليه الذي شاءه منهم وخلقه لهم، ومشيئتهم وفعله بعد مشيئته، فما يشاءون إلا أن يشاء الله، وما يفعلون إلا أن يشاء الله، وإذا وازنت بين هذا المذهب وبين ما عداه من المذاهب وجدته هو المذهب الوسط والصراط المستقيم، ووجدت سائر المذاهب خطوطا عن يمينه وعن شماله، فقريب منه وبعيد، وبين ذلك، وإذا أعطيت الفاتحة حقها وجدتها من أولها إلى آخرها منادية على ذلك، دالة عليه، صريحة فيه، وإن كان حمده لا يقتضي غير ذلك وكذلك كمال ربوبيته للعالمين لا يقتضي غير ذلك، فكيف يكون الحمد كله لمن لا يقدر على مقدور أهل سماواته وأرضه من الملائكة والجن، والإنس والطير والوحش، بل يفعلون ما لا يقدر عليه ولا يشاؤه ويشاء ما لا يفعله كثير منهم، فيشاء ما لا يكون، ويكون مالا يشاء، وهل يقتضي ذلك كمال حمده، وهل يقتضيه كمال ربوبيته)[1].

وفيما يتعلق بآية الباب: فإن كلام جار الله فيه كبير خفاء، وعظيم مداراة على طريقته المذهبية الاعتزالية، فإن الزمخشريّ يرى أن معنى:" **يُؤْمِنُوا** "أي: يحدثوا الإيمان ... الخ.

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل صـ ٥٢، ٥٣ تحقيق محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي ط دار الفكر - بيروت سنة ١٣٩٨ - ١٩٧٨ .

وبنظرة فاحصة: في فحوى كلامه يتبيّن لنا: أنه إن إراد بقوله: " يحدثوا " عموم التصديق والإقرار برسالة النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما جاء فيها كغيرهم من الناس، وكما فسّره علماء أهل السنة من أن الإيمان والكفر بإرادة الله تعالى، فمن شاء له الإيمان آمن، ومن أراد له الكفر كفر، حسب علم الله تعالى وتقديره ذلك في قلب العبد واستعداده لقبول ذلك، فبها ونعمة، وليس على كلام الزمخشريّ غبار في تفسيره هذا النص الكريم، على هذا المنوال. ويؤيده على هذا النحو قول الألوسي في روح المعاني عند تفسيره آية الحديد:{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ**}[الحديد ٢٨] قال:(المعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ آمنوا بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي: أثبتوا على الإيمان به، أو أحدثوا الإيمان به- عليه الصلاة والسلام-)[(١)].

وإن كان الزمخشريّ- كما هو متوقع منه ومعروف من حاله- قد قال:" **يحدثوا الإيمان** "هذا حسب معتقده الاعتزاليّ الذي يقول بخلق العباد أفعالهم أنفسهم، فيؤمنوا ويكفروا من قبل محض إرادتهم في قبول الإيمان أو الكفر، باعتبار أن أمر الإيمان والكفر إنما هو راجع إلى اختيار العبد إياه، أو عدم اختياره، دون تدخل من الله تعالى من حيث تقدير إيمان العبد أو كفره فهذا يعد من أكبر المسائل التي أخذت على الزمخشريّ في تفسيره، وترويجه لهذه المسألة كلما عرض لها في تفسير كتاب الله تعالى، ولا شك أن الزمخشريّ قد ضل في هذه المسألة، لأن الإيمان والكفر وغيرهما من أفعال العباد، إنما

(١) روح المعاني ٢٧ /١٩٤ .

هـي أمـور يقـدّرها الله تبـارك وتعـالى بقـدره، وهـي تخضـع لمشـيئته وإرادتـه جَلَّجَلَالُهُ فـلا يقـع فـي ملـك الله إلا مـا أراد الله، وأن عمـل العبـد لا يتعـدى الكسب، دون أدنى تدخل منه في شيء من قدر الله تعالى، ولا أدلّ على ذلك مـن صـريح قولـه تبـارك وتعـالى:{إِنَّـا كُـلَّ شَـيْءٍ خَلَقْنَـاهُ بِقَـدَرٍ}[القمـر ٤٩] وقوله:{وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ}[الرعد ٨] والعجب من الزمخشريّ أنه قد فسّر آية الرعد هذه بقوله:("بِمِقْدَارٍ": بقدْر وحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه، كقولـه: " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ")[1] وفسّر آية القمر هـذه بقولـه:(والقَدَر والقَدْر: التقدير• وقرئ بهما(٢) أي: خلقنا كل شيء مقدّراً محكماً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة، أو مقدّراً مكتوباً في اللوح، معلوماً قبل كونه قد علمنا حاله وزمانه)(٣).

وكلامه في الموضعين: لا يشير ولـو مـن طرف خفي إلى القـول بأن الأمور تجري بالمقادير وحسب المشيئة، بل حصرها الزمخشريّ في تحديد القـدر المعيّن والكـم المحـدد فقـط، دون أن يـذكر وقـوع كـل مـا أراده تعـالى بقدره ومشيئته، وهذا من أبلغ ألوان التشبث الممقوت عند الزمخشريّ، حيث يوجّه الآية ونظائرها حسب هواه، وبما يتفق مع مذهبه الفاسد، في حين نرى أئمة أهل السنة والجماعة يفسرون الآية وما ناظرها على أن كل ما يجري في كون الله تعالى بقدره ومشيئته وحسب إرادته كيفا وكما، وأنه لا يقع في ملك الله تعـالى شيئا لا يعلمـه، أو هـو خـارج عـن خلقـه لـه، وإرادتـه لوجـوده. وممـا

(١) الكشاف ٢/٣٥١ .

(٢) قراءة شاذة غير معمول بها.

(٣) الكشاف ٤/ ٤١ .

يؤكد أن الزمخشريّ أراد باستعماله لفظ:" يحدثوا " ما يرمي إليه من أن أفعال العباد مخلوقة لهم، أنه استعمل نفس اللفظ في تفسيره قوله تعالى:" **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ**}[البقرة ٨٨]في حق الكفار بصيغة: " بما أحدثوا من الكفر الزائغ عن الفطرة[١] إذ أخذ من ذلك أن الكفر والامتناع من قبول الحق هم خلقوه لأنفسهم، سيرا مع قاعدته الفاسدة في خلق الأعمال، كما سيأتي تفصيله في موضعه - إن شاء الله تعالى- فكلامه في المواضع المتشابهة واحد، وإن اختلف أسلوب الأداء فيه، وإن كان كلامه الزمخشريّ في تفسيره الآية التي معنا هنا ليس بوجه التصريح في بث عقيدته في هذه المسألة، إلا أنه قد سبق تقريره لها من قبل في تفسير السورة ذاتها عندما عرض لتفسير قوله تعالى:{**يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ**}[البقرة ٢٦]حيث ذكر الزمخشريّ أن إسناد الإضلال إلى الله تعالى ليس على سبيل الحقيقة، بل على سبيل المجاز، لأن العباد - في رأيه - هم الذين يضلون أنفسهم، أو يهدونها حسب اختيارهم وإرادتهم ذلك بما يتفق وعقولهم. قال جار الله:(وإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب، لأنه لما ضرب المثل فضلّ به قوم، واهتدى به قوم، تسبب لضلالهم وهداهم، وعن مالك ابن دينار- رحمه الله -: أنه دخل على محبوس قد أُخذ بمال عليه وقُيّد فقال: يا أبا يحيى، أما ترى ما نحن فيه من القيود؟ فرفع مالك رأسه فرأى سلّة فقال: لمن هذه السلة؟ فقال: لي، فأمر بها تنزل فإذا فيها دجاج وأخبصة[٢] فقال مالك: هذه وضعت القيود على

---

(١) الكشاف ١/ ٢٩٥ .

(٢) جمع: خبيص وهي الحَلْواءُ المَخْبوصةُ، وخَبَص الحلواء يَخْبِصُها خَبْصاً وخَبَّصها: =

رجلك[1])[2] .

وهذا المسلك الاعتزاليّ الصريح: الذي سلكه جار الله - في تفسيره لهذه الآية[3]- قد أثار حفيظة العلامة ابن المنيّر الذي قام بالرد عليه خير قيام حيث قال:(جرى علي سنّة السببية في اعتقاد أن الإشراك بالله، وأن الإضلال من جملة المخلوقات الخارجة عن عدد مخلوقاته عَزَّوَجَلَّ بل من مخلوقات العبد لنفسه، على زعم هذه الطائفة- تعالى الله عما يقول الظالمون علوّا كبيرا - وانظر إلى ضيق الخناق فغلبة الحكايات لإطلاقات المشايخ فرتب عليها حقائق العقائد، وهذا من ارتكاب الهوى، واقتحام الهلكة، وما أشنع تصريحه بأن الله سَبَبُ الإضلال لا خالقه، كما أن السلّة سبب في وضع القيود في رجل المحبوس وإسناد الفعل لله عَزَّوَجَلَّ مجاز لا حقيقة، كما أن إسناد الفعل إلى البلد كذلك، يا له من تمثيل صار به مُثْلة[4] وتنظير صار به حائدا عن النظر الصحيح، مردود على التفصيل والجملة، نسأل الله تعالى العصمة من أمثال هذه الزلة وهو وليّ التوفيق)[5].

= خَلَطَها وعمِلَها- اللسان:" خبص ".

(١) فيض القدير٤/٥٧ وعزاه للطبراني والبزار والديلمي عن جرير بن عبد الله - صفوة الصفوة ٣/٢٧٨

(٢) الكشاف١/٢٦٧ .

(٣) يعنى الآية رقم ٢٦ من سورة البقرة .

(٤) المَثُلةُ:- بفتح الميم وضم الثاء- العقوبة والجمع المَثُلاتُ وأمْثَلَهُ جعله مثله- اللسان ومختار الصحاح مادة:" مثل ".

(٥) الانتصاف ١/ ٢٦٧، ٢٦٨ .

والزمخشريّ: بقوله ذلك يقاسم القدرية الرأي في إنكار أن يكون الهدى والضلال من الله تعالى، وإنما ذلك محض فعل من العبد، فهو الذي يضل نفسه أو يهديها، والهدي والضلال من الله إنما هو تسمية هذا مهتدي وهذا ضال، بعد اختيار العبد له[1].

والحال مشترك: أيضا مع الجبرية، إلا أن ضلالهم كان له صورة أخرى تناقض ما كان عليه المعتزلة والقدرية، حيث إنهم أثبتوا لله تعالى مشيئة محضة عارية عن الحكمة والتعليل، فهداية الله لهذا وإضلاله لذاك ليس إلا لمحض المشيئة التي ترجح أحد المتماثلين بلا مرجح، وأنكروا مع ذلك فعل العبد وقدرته، وأن يكون له تأثير في الفعل البتة[2].

وقد عمل أهل السنة والجماعة على تفسير هذه الآية بوجهها الصحيح، بعيدا عن ضلالات المعتزلة، وترهات القدرية، وخزعبلات الجبرية ومن نحا نحوهم.

قال العلامة ابن عطية:(واختلف المتأولون في قوله تعالى:" **يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ** " [البقرة ٢٦] فقيل: هو من قول الكافرين أي: ما مراد الله بهذا المثل الذي يفرّق به الناس إلى ضلالة وإلى هدى، وقيل: بل هو خبر من الله تعالى أنه يضل بالمثل الكفار الذين يعمون به، ويهدي به المؤمنين الذين يعلمون أنه الحق، وفي هذا رد على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يخلق الضلال، ولا خلاف أن قوله تعالى:" **وَمَا**

(١) راجع: مقالات الإسلاميين ١/٢٦٠، ٢٦١ .

(٢) انظر: شفاء العليل ١٤١ - المسائل الاعتزالية ١/٢٠٤ .

يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ " من قول الله تعالى)[1].

وقال أبو عبد الله القرطبيّ:(المعنى: قل يضل الله به كثيرا ويهدي به كثيرا أي: يوفق ويخذل، وعليه فيكون فيه رد على من تقدم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم في قولهم إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى قالوا: ومعنى يضل به كثيرا التسمية هنا أي: يسميه ضالا، كما يقال فسّقت فلانا: سميته فاسقا لأن الله تعالى لا يضل أحدا، هذا طريقهم في الإضلال، وهو خلاف أقاويل المفسرين محتمل في اللغة لأنه يقال ضلّله إذا سماه ضالا، ولا يقال: أضله إذا سماه ضالا، ولكن معناه ما ذكره المفسرون أهل التأويل من الحق أنه: يخذل به كثيرا من الناس مجازاة لكفرهم، ولا خلاف أن قوله تعالى:" **وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ** " من قول الله تعالى)[2] وقال أبو حيّان:(وقيل: الضمير في:" **بِهِ** " من قوله:" **يُضِلُّ بِهِ** " أي: بالتكذيب في به من قوله:" **وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا** " أي: بالتصديق، ودلّ على ذلك قوة الكلام في قوله تعالى:" **فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ** "[البقرة ٢٦] " **وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ** " ومعنى:" **وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ** " أي: وما يكون ذلك سبباً للضلالة إلا عند من خرج عن الحق٠وقال بعض أهل العلم: معنى يضلّ ويهدي: الزيادة في الضلال والهدى، لا أن ضرب المثل سبب للضلالة والهدى، فعلى هذا يكون التقدير: نزيد من لم يصدق به وكفر ضلالاً على ضلالة، ومن آمن به وصدق إيماناً على إيمانه)[3]. وهذا هو الحق والصواب وعليه الاعتماد. والله تعالى أعلم.

---

(١) تفسير ابن عطية ١١٢/١ .

(٢) تفسير القرطبي ٢٤٤/١، ٢٤٥ .

(٣) البحر المحيط ٢٧٠/١ .

وفعل الزمخشريّ: في تفسير هذه الآية، كفعله في كل موطن مماثل من تفسيره فيما يتعلق بالآيات التي تحدثت عن إيمان العبد وكفره على هذا النحو، دون حياد عنه، فعند شرحه لقوله تبارك وتعالى:{**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**}[البقرة ١٤].

قال أبو القاسم جار الله:(فإن قلت:لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالإسمية محققة بأن؟ قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديرا بأقوى الكلامين وأوكدهما، لأنهم في ادعاء حدوث الإيمان منهم، ونشئه من قِبَلِهم لا في ادعاء أنهم أوحديون في الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرك وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة)(١).

وكان للعلامة أبي البركات النسفيّ: دور كبير في إبطال عقيدة المعتزلة في هذه المسألة وغيرها حيث ذكرها في غير موضع من تفسيره، وكرّ عليهم مرة تلو الأخرى وعارضهم بصور شتى، من ذلك: تفسيره لقوله تعالى:{ **كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ**}(٢) []قال:("**سَلَكْنَاهُ**" أي: أدخلنا التكذيب أو الكفر وهو مدلول قوله:{**مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ**}[] (٣) " **فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ** "

---

(١) الكشاف ١/ ١٨٥ .

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٠٠ .

(٣) سورة الشعراء الآية ١٩٩ .

الكافرين الذين علمنا منهم اختيار الكفر والإصرار عليه، يعنى مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم وقررناه فيها، فكيفما فعل بهم وعلى أي وجه دبر أمرهم، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الكفر به، والتكذيب له كما قال:{**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ**}[الأنعام ٧] وهو حجتنا على المعتزلة في خلق أفعال العباد خيرها وشرها) [١] وعند تفسير قوله تعالى:{**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ**}[القصص ٤١] قال الإمام النسفيّ:(قادة يدعون إلى النار، أي: عمل أهل النار، قال ابن عطاء: نزع عن أسرارهم التوفيق وأنوار التحقيق، فهم في ظلمات نفوسهم لا يدلون على سبيل الرشاد، وفيه دلالة خلق أفعال العباد[٢])[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [البقرة ٨٨] . قال الزمخشريّ:(" **غلفٌ** " جمع أغلف أي: هي خلقة وجبلة مغشاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا تفقهه، مستعار من الأغلف الذي لم يختن كقولهم: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ**﴾ [فصلت ٥] ثم ردّ الله أن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك، لأنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق بأن الله لعنهم وخذلهم بسبب كفرهم فهم الذين غلفوا قلوبهم بما أحدثوا من الكفر الزائغ عن الفطرة، وتسببوا بذلك لمنع الألطاف التي

---

(١) تفسير النسفيّ ٣/ ١٩٩ .

(٢) يريد: خلق الله تعالى أفعال العباد.

(٣) تفسير النسفي٣/٢٣٨ .

تكون للمتوقع إيمانهم وللمؤمنين)[١] قال العلاّمة الإمام ابن المنيّر:(وهذا من نوائب الزمخشريّ على تنزيل الآيات على عقائدهم الباطلة، وأنى له بذلك في الكتاب العزيز الذي:"**لاَيَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ**"[فصلت ٤٢]ألا تراه كيف أخذ من ردّ الله على هذه الطائفة أن تكون قلوبهم مخلوقة على الكفر أن الكفر والامتناع من قبول الحق هم خلقوه لأنفسهم تمهيدا لقاعدته الفاسدة في خلق الأعمال.

وسبيل الرد عليه: أن الله تعالى إنما كذّبهم وردّ عليهم في ادعائهم عدم الاستطاعة للإيمان وسلب التمكن، وعلّلوا ذلك بأن قلوبهم غلف، وصدق الله[٢] ورسوله[٣] في أنه خلقهم على الفطرة والتمكن من الإيمان، والتأني والتيسر له وإنما هم اختاروا الكفر على الإيمان، فوقع اختيارهم الكفر مقارنا لخلق الله تعالى إياه في قلوبهم، بعد ما أنشأهم على الفطرة، فقيام حقّ الله تعالى عليهم بأنه خلقهم متمكنين من الإيمان غير مقسورين[٤] على الكفر، وذلك لا ينافي توجيه أهل السنة في اعتقاد أن الله تعالى خالق ذلك في قلوبهم على وفق اختيارهم، هذا هو الحق الأبلج والصراط الأبهج٠والله أعلم.

---

(١) الكشاف ١/ ٢٩٥ .

(٢) يعني في قوله تعالى: " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ "سورة الروم الآية ٣٠ .

(٣) يريد فيما ورد من أحاديث تدل على ذلك منها يأتي سردها قريبا.

(٤) أي: مقهورين مغلوبين - النهاية ٤/٢٥٩ - اللسان مادة:" قسر".

وقول الزمخشريّ: إن كفرهم إنما خلقوه لأنفسهم بسبب منع ألطاف الله تعالى التي تسبب المؤمنون في حصولها لهم، وكانت سببا في خلقهم الإيمان في قلوبهم، كل هذا تستر من الإشراك، واعتقاد آلهة غير الله تخلق لنفسها ما شاءت من إيمان وكفر- تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا-)[1].

المناقشة والتعليق

في هذا الموضع يعيد الزمخشريّ تقرير العقيدة الفاسدة لأهل الاعتزال الذين هو واحد منهم، في خلق العباد أفعالهم بأنفسهم، في إرادة الخير أو الشر، حسب ما يختارون هم من أفعال، فإيمانهم وكفرهم إنما هو بأيديهم دون تدخل من الله تعالى في ذلك بإرادة أو مشيئة، وهذا تمشيّا مع العقل الذي عليه مدار التكليف عندهم وهو الذي يقرّر حسن الفعل أو قبحه، وعليه يترتب تعيين الاختيار المطروح من الإنسان نفسه، سواء كان الفعل المختار محببا أو غير محبب، وقد سبق الكلام: حول هذه المسألة والتعليق عليها ومناقشة الزمخشريّ فيها عند تفسيره قوله تعالى:" **أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ**"[البقرة ٧٥] مع بيان موقف أهل السنة والجماعة منها، وأن العباد لهم قدرة وإرادة واختيار وكسب، لكن كل ذلك ليس مستقلا عن قدرة الله تعالى وإرادته كما تقول القدرية، وليست هي قدرة الله وإرادته كما تقول الجبرية ومن نحا نحوهم، وإنما عمل العبد وقدرته في ذلك هو الكسب واستعماله الجوارح التي جعلها الله تبارك وتعالى فيه، ففعل العبد على الحقيقة إلا أنه مخلوق لله تعالى، وحسب إرادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلمه، وليس هو فعل الله تعالى، وهناك

(١) الانتصاف ١ / ٢٩٥، ٢٩٦ بهامش الكشاف.

فرق كبير بين كل من الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق، فلا يكون المخلوق خالقا ولا الفعل مفعولا[1].

وبالنسبة لآية الباب هنا فإن تفسير الزمخشريّ لها باطل من عدة نواحي:

الأولى: أن الآية الكريمة ليس فيها ما يدل لا تصريحا ولا تلميحا على أن العباد هم الذين يخلقون أفعال أنفسهم بأنفسهم بعيدا عن تقدير الله تعالى أو إرادته لهم ذلك وإنما الذي أفادته الآية الكريمة هو أنها رد على الكفرة الذين زعموا أن قلوبهم مغلقة لا يمكن تطرق الإيمان إليها، ولإحكام الطبع عليها، فهم لا ذنب لهم في ذلك فجاء الرد من الله تعالى عليهم بأن ما زعموه باطل، وما تذرعوا به هالك وهو مردود عليهم، لأن ما هم فيه من كفر وجحود ليس بسبب الطبع عليها كما ادعوا بل بسبب كفرهم وإصرارهم على البعد عن منهج الله تعالى، لأن هذا لا يتفق مع ما فطرت عليه القلوب من الإيمان، فكيف تفطر القلوب على الإيمان ويطلع عليها ويغلق في نفس الوقت؟ بل ما حدث لقلوبهم إنما كان على سبيل المجازاة لهم والعقاب في تماديهم في الكفر والضلال.

قال العلامة محمد عليّ الصابوني: (الغرض - أي من الآية - إقناطه من إيمانهم)[2] **الثانية**: أن في كلامه تعارض واضح، وتباين كبير في تفسيره الذي طرحه وبين المفهوم من الآيات على الوجه الصحيح الخالي من الشوائب، وما من شأنه أن يعكّر على النص صفو معناه، وكريم قصده وذلك

(١) راجع شرح الطحاوية صـ ٤٣٩ .

(٢) صفوة التفاسير ١/ ٧٧ .

حين قال في معنى:" **غلفٌ** " أنه: جمع أغلف، أي: هي خلقة وجبلة مغشاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا تفقهه " فكيف تكون خِلقة وجبلة ومغشاة بأغطية٠٠الخ، وتكون في نفس الوقت مانعة لها من الإيمان، وعلى هذا يكون - بحسب زعمه - لا ذنب لهم في كفرهم وبعدهم عن الإيمان، لأن قلوبهم التي من شأنها أن تتقبل الإيمان مغلقة بفعل الله تعالى، فلا يمكن تطرق الإيمان إليها.

ثم بعد ذلك أخذ الزمخشريّ: من ردّ الله تعالى عليهم أنه تعالى إنما خلقهم على الفطرة، وأنهم هم اختاروا الكفر على الإيمان بمحض إرادتهم، دون أن يوافق ذلك وجود له في قلوبهم بفعل الله تعالى لهم ذلك، وهذا يدل على أنه - أي جار الله الزمخشريّ - يرمي إلى القول بأن: الإيمان وإن كان فطريا في قلوب الناس، إلا أن أمر الاختيار لا علاقة له بإرادة الله تعالى- في زعم الزمخشريّ - وإنما هو اختيار إنسانيّ فحسب، فله أن يختار الإيمان أو الكفر بمحض إرادته، وقد جعل الغشاء الذي على قلوبهم هو السبب الذي من أجله لم يستطيعوا أن يؤمنوا، وهذا كلام مردود عليه شكلا وموضوعا من نواحي عدة:

(أ)- أن مسألة خلق الناس على الفطرة أمر ثابت بالكتاب والسنة.

قال الله تعالى:" **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** "[الروم ٣٠] وقول المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه عنه أبو هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويشرّكانه، فقال رجل**

يا رسول الله: أرأيت لو مات قبل ذلك؟ قال الله أعلم بما كانوا عاملين "(١).

وفي رواية لمسلم أيضا:" **ما من مولود إلا يولد على الفطرة، ثم يقول اقرؤا:" فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**"(٢).

(ب)- اختيار العبد الإيمان أو الكفر إنما يوافق إرادة الله تعالى له ذلك بما خلق في قلبه من قبول للإيمان، أو عدم قبول له، فإذا علم الله تعالى الإيمان من العبد وفّقه إليه، ويسر له أمره فيه، ولم يكن هناك مانع أو حاجز له من ذلك. وإذا علم الله - تبارك اسمه - من العبد عدم قبوله للإيمان وإقباله على الكفر، يسّر له أمر ما يقبل عليه، وحرمه من الإيمان الذي فطر عليه وهذه غاية في عدل الله تعالى.

جـ- أن:" **بل** " في قوله:{**بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ**}حرفُ إضرابٍ، والإضرابُ راجعٌ إلى ما تَضَمَّنه قولُهم من أن قلوبَهم غُلْف، فردَّ الله عليهم ذلك بأنَّ سببَ لَعْنُهم بكفرهم السابق(٣).

الثالثة: أن الزمخشريّ معروف عنه دسّ السم في العسل، فقد أخذ من عبارته هو:" ثم ردّ الله أن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك، لأنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق، بأن الله لعنهم وخذلهم بسبب كفرهم الخ"

---

(١) صحيح مسلم كتاب القدر باب " معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين" حديث ٢٦٥٧ جـ٤ صـ ٢٠٤٨ .

(٢) المصدر السابق الكتاب والباب حديث ٢٦٥٨جـ ٤ صـ ٢٠٤٧ .

(٣) راجع: الدر المصون ١/ ١٦٧ .

حيث جعله طريقا ممهدا لترسيخ فاسد عقيدته، وانحدار متجهه إلى إعادة القول مرة بعد أخرى في تأكيد قاعدته بأن العبد يخلق فعل نفسه، ولذا عبّر عنه بقوله:" بما أحدثوا الخ " وهو موضع الشاهد المتعلق بما تقدم ذكره في تفسيره قوله تبارك وتعالى:" **أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ** "[البقرة ٧٥] وهو يشير- من طرف خفيّ إلى أن إحداث الكفر جاء بسبب اختيارهم وإحداثهم له، لأنه كان غير موجود - في زعمه - وأن مشيئة الله تعالى لا تتعدى أمر خلق الفطرة التي خلقوا عليها لا أكثر، وفي هذا ما فيه من تعد على المفهوم من لفظ القرآن، وتحريض على التجرؤ على أدق شئون العقيدة المتعلقة بالخلق والإيجاد القائم على المشيئة والإرادة من الله تعالى لعباده.

ونتساءل: وّإذا كان العبد هو الذي يخلق أفعال نفسه بنفسه، فهل خلق الإنسان نفسه حتى يختار لها ما يناسبها، وإذا كان الخالق تعالى قد خلق أيكون شأن الإرادة والاختيار للعباد أمرا خارجا عن مهمة الخالق- وهل يكون الإنسان المخلوق الضعيف الذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا رزقا ولا حياة ولا موتا ولا نشورا، هل يكون في مقام يستطيع من خلاله خلق فعل لنفسه؟ سبحانك ربي هذا بهتان عظيم.

ولا شك: أن الزمخشريّ قد ضلّ في هذه المسألة وما شابهها من مسائل المعتزلة التي تشبث بها، وعمل على ترويجها، وكان عليه - وهو واحد من أكابر أئمة التفسير- أن يتعقل أكثر من ذلك، وأن ينظر بعين الصواب لكل ما ترمي إليه الآيات من معان، وما تهدف إليه من مقاصد وذلك برؤية شفافة، وقصد حميد، بعيد عن الهوى والزيغ، وحب التشبث

والضلال.

وقد أحسن العلامة ابن المنيّر: في رده على الزمخشريّ حين قال:(وسبيل الرد عليه: أن الله تعالى إنما كذّبهم وردّ عليهم في ادعائهم عدم الاستطاعة للإيمان وسلب التمكن، وعلّلوا ذلك بأن قلوبهم غلف، وصدق الله ورسوله في أنه خلقهم على الفطرة والتمكن من الإيمان، والتأني والتيسر له وإنما هم اختاروا الكفر على الإيمان، فوقع اختيارهم الكفر مقارنا لخلق الله تعالى إياه في قلوبهم، بعد ما أنشأهم على الفطرة، فقيام حقّ الله تعالى عليهم بأنه خلقهم متمكنين من الإيمان غير مقسورين على الكفر)[١].

والحق: ما قاله ابن المنيّر أن اختيارهم جاء موافقا لخلق الله تعالى الكفر في قلوبهم، بعد الفطرة التي خلقوا عليها، وقد ذكر جمع من أئمة ومفسريّ أهل السنة الآية على معناها الصحيح، بعيدا عن ترهات الزمخشريّ وانحرافاته. قال ابن عطية:(ردّ الله تعالى عليهم بقوله:"**بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ**" و:" **بَلْ** " في هذه الآية نقض للأول، وإضراب عنه، ثم بيّن تعالى أن السبب في نفورهم عن الإيمان إنما هو أنهم لعنوا بما تقدم من كفرهم واجترامهم، وهذا هو الجزاء على الذنب فالذنب أعظم منه واللعن الإبعاد والطرد)[٢].

ونقل ابن القيّم تساؤلا وأجاب عنه فقال:(وجه التضارب في غاية الظهور وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به

(١) الانتصاف ١/ ٢٩٥ .

(٢) تفسير ابن عطية ١/ ١٧٧ .

الرسول ومعرفته بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقهه فكيف تقوم به عليهم الحجة؟ وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف، فهم معذورون في عدم الإيمان فأكذبهم الله وقال:" **بَلْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ** " وفي الآية الأخرى:" **بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ**"[النساء ١٥٥] فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم، وآثروه على الإيمان فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة.

والمعنى: لم يخلق قلوبهم غلفا لا تعي ولا تفقه، ثم أمرهم بالإيمان وهم لا يفقهون، بل اكتسبوا أعمالا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها)[١].

وقال الإمام الطبريّ: (في قول الله تعالى ذكره:" **بَلْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ** " تكذيب منه للقائلين من اليهود:" **قُلُوبُنَا غُلْفٌ** " لأن قوله:" **بَلْ** " دلالة على جحده جل ذكره وإنكاره ما ادعوا من ذلك، إذ كانت " **بَلْ** " لا تدخل في الكلام إلا نقضا لمجحود، فإذ كان ذلك كذلك فبين أن معنى الآية: وقالت اليهود: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه يا محمد، فقال الله تعالى ذكره: ما ذلك كما زعموا ولكن الله أقصى اليهود وأبعدهم من رحمته وطردهم عنها، وأخزاهم بجحودهم له ولرسله فقليلا ما يؤمنون)[٢]. وبنحوه قال أبو عبد الله القرطبي- رحمه الله-[٣].

---

(١) شفاء العليل ٩٣ - بدائع التفسير ١/ ٣٢٥ .

(٢) تفسير الطبري ١/ ٤٥٠ .

(٣) تفسير القرطبي ٢/ ٢٥ .

وقال العلامة البيضاوي في معنى الآية:(المعنى: أنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق، ولكن الله خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم أو أنها لم تأب قبول ما تقوله لخلل فيه، بل لأن الله تعالى خذلهم بكفرهم، كما قال تعالى:" **فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُم** "[محمد ٢٣] أو هم كفرة ملعونون، فمن أين لهم دعوى العلم والاستغناء عنك؟)[١]وقال السمين:(قرأ الجمهورُ: "**غُلْفٌ**" بسكون اللام[٢]وفيها وجهان: أحدهما:- وهو الأظهرُ- أن يكونَ جمع أَغْلَف، كأحمر وحُمْر، وأصفر وصُفْر، والمعنى على هذا: أنها خُلِقَتْ وجُبِلت مُغَشَّاةً لا يَصِلُ إليها الحقُّ، استعارةً من الأغلف الذي لم يُخْتَتَنْ. والثاني: أن يكونَ جمعَ غِلاف، ويكونُ أصلُ اللامِ الضمَّ فخُفِّفَ نحو: حِمار وحُمُر، وكتاب وكُتُب، إلاَّ أنَّ تخفيفَ فُعُل إنما يكون في المفرد غالباً نحو عُنْق في عُنُق، وأمَّا فُعُل الجمع فقال ابن عطية[٣]: لا يجوز تخفيفُه إلا في ضرورةٍ، وليس كذلك، بل هو قليل، وقد نصّ غيرُه على جوازه)[٤].

والرأي الأول: هو الصحيح الذي عليه أكثر المفسرين وعامتهم، كما قال ابن القيّم[٥].

ويؤيده: ما ختمت به الآية بعدها من قوله تعالى:" **فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى**

---

(١) تفسير البيضاوي ١/ ٣٥٨ .

(٢) السبعة في القراءات صـ ١٦٤ .

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٧٧ .

(٤) الدر المصون ١/ ١٦٧ .

(٥) بدائع التفسير ٣٢٣/١ ، ٣٢٤- وانظر: بدائع الفوائد ٣/ ١١٦ .

الْكَافِرِينَ"[البقرة ٨٩]حيث وضع الظاهر موضع الضمير ولم يقل:"عليهم " إشعارا بأن السبب في حلول اللعنة عليهم هو كفرهم وضلالهم.

إلى غير ذلك من أقوال العلماء والأئمة أهل الشأن في تفسير الآية على وجهها الصحيح، الذي لا تشوبه شائبة، ولا يلحقه عيب. والله أعلم.

٣- في قوله تعالى:{**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصْدِقاً لِمّاَ مَعَهُمْ**}(البقرة ٩١) قال الزمخشريّ:(" **قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا** " مقيّد بالتوراة " **وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ** " أي: قالوا: ذلك والحال أنهم يكفرون بما وراء التوراة " **وَهُوَ الْحَقُّ مُصْدِقاً لِمّاَ مَعَهُمْ** " منها غير مخالف له، وفيه رد لمقالتهم، لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا)[١].

قال ابن المنيّر:(وهذه النكتة بعينها هي الموجب لكفر القدرية على أحد قول مالك والشافعيّ والقاضي[٢] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فإن العقائد الصحيحة السنيّة متلازمة يصدق بعضها بعضا، فجحد أحدها كفر به، ثم كفر بالجميع٠نسأل الله تعالى العصمة)[٣].

المناقشة والتعليق

يبيّن الزمخشريّ في تفسير هذه الآية: أن كفر هؤلاء محصور فيما وراء

(١) الكشاف ١/ ٢٩٦ .

(٢) لعله ابن العربيّ.

(٣) الانتصاف ١/ ٢٩٦ .

توراتهم أي: بما جاء بعدها، وهو القرآن الكريم، مع أنه موافق لها، غير مخالف لما حوته من مضمون الأحكام الإلهية، والتشريعات الربانية، مع احتفاظ كل منهما بما يناسبه من مناهج وطرق لتنفيذ الأوامر والنواهي، وقد أحسن جار الله إذ حكم عليهم ببطلان مدّعاهم، وكذّبهم في مقالتهم، لأن ما جاء عن الله تعالى يجب تصديقه والإيمان به كليا دون تفرقة، لأنه بمجموعه هو حق وصدق من عند الله تبارك وتعالى، والإيمان به يجب أن يكون شاملا، لأنه كل لا يتجزأ، أما أن يؤمنوا ببعض ويكفروا بعض، فهو الكفر بعينه، لأن التوراة إذا كانت كتابا من عند الله تعالى وهي كذلك - أي: قبل أن يدخلها التحريف والتبديل- فالقرآن أيضا كتاب إلهيّ مقدّس منزل من عند الله تعالى، يجب الإيمان به وتقديره وتبجيله، والإذعان لما شمله من أحكام وشرائع لأنه الكتاب المعجز، والآية الباقية للرسول الخاتم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وقد أمرتنا شريعتنا الإسلامية: بالإيمان بكل الرسل السابقين، وبجميع الكتب المنزلة قبل القرآن لأن هذا من مقتضيات الإيمان ولوازمه، والكفر بشئ من ذلك يوقع صاحبه في صريح الكفر وعمومه.

قال تعالى:{**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**}[البقرة ٢٨٥] قال ابن القيم في معنى آية الباب: (وفي قوله:" **وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ** " نكتة بديعة جدا وهي: أنهم لما كفروا به وهو حق لم يكن إيمانهم بما أنزل عليهم لأجل أنه حق، فإذا لم يتبعوا الحق فيما أنزل عليهم، ولا فيما جاء به محمد، لأنهم لو آمنوا بالمنزل عليهم أنه حق لآمنوا بالحق الثاني وأعطوا الحق حقه من الإيمان، ففي ضمن هذه الشهادة عليهم بأنهم لم يؤمنوا بالحق

الأول ولا بالثاني وهكذا الحكم في كل من فرّق الحق فآمن ببعضه وكفر ببعضه، كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض وكمن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض، لم ينفعه إيمانه بما كفر به حتى يؤمن بالجميع، ونظير هذا التفريق من يرد آيات الصفات وأخبارها ويقبل آيات الأوامر والنواهي، فإن ذلك لا ينفعه، لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض، فإن كانت الشبهة التي عرضت لمن كفر ببعض الأنبياء غير نافعة له فالشبهة التي عرضت لمن ردّ بعض ما جاء به النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولى أن لا تكون نافعة وإن كانت هذه عذرا له فشبهة من كذّب بعض الأنبياء مثلها وكما أنه لا يكون مؤمنا حتى يؤمن بجميع الأنبياء، ومن كفر بنبيّ من الأنبياء فهو كمن كفر بجميعهم، فكذلك لا يكون مؤمنا حتى يؤمن بجميع ما جاء به الرسول، فإذا آمن ببعضه ورد بعضه فهو كمن كفر به كله، فتأمل هذا الموضع، واعتبر به الناس على اختلاف طوائفهم، يتبين لك أن أكثر من يدعى الإيمان بريء من الإيمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله)[1].

وقال أيضا:(وفي قوله:" **وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ** " نكتة بديعة جدا وهي: أنهم لما كفروا به وهو حق، لم يكن إيمانهم بما أنزل عليهم لأجل أنه حق، فإذا لم يتبعوا الحق فيما أنزل عليهم، ولا فيما جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنهم لو آمنوا بالمنزل عليهم أنه حق لآمنوا بالحق الثاني، وأعطوا الحق حقه من الإيمان، ففي ضمن هذه الشهادة عليهم بأنهم لم

(١) بدائع الفوائد ٤/ ٩٥٧ تحقيق : هشام عبد العزيز عطا - عادل العدوي وأشرف أحمد ط مكتبة نزار مصطفى الباز- مكة المكرمة الطبعة الأولى١٤١٦- ١٩٩٠.

يؤمنوا بالحق الأول ولا بالثاني، وهكذا الحكم في كل من فرّق الحق فآمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض، لم ينفعه إيمانه بما كفر به حتى يؤمن بالجميع.

ونظير هذا التفريق: تفريق من يرد آيات الصفات وأخبارها، ويقبل آيات الأوامر والنواهي، فإن ذلك لا ينفعه، لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض)[١].

وعدّ ابن المنيّر هذه الحالة التي كان عليها بنو إسرائيل هي مشابهة للحالة التي كان عليها القدرية، إذ أنهم قالوا بالإيمان بالبعض والكفر بالبعض الآخر، ولذا كانوا خارجين عن الملة على رأي مالك والشافعي والباقلاني، وأكد ابن المنيّر أن هذا الحكم هو حكم العقائد الصحيحة السنيّة القائلة بوجوب الإيمان بكل ما يجب الإيمان به دون تفرقة أو تجزئة، وأن هذا هو الضابط لذلك.

إلا أن صالح الغامدي في كتابه:" المسائل الاعتزالية " لم يرتض ما قاله ابن المنيّر من بيان الضابط لعقائد أهل السنة والجماعة، بل عارضه وخطّأه فيما ذهب إليه حيث قال:(هذا الضابط ليس بصحيح، فإن التكفير في مذهب أهل السنة والجماعة له حدوده وضوابطه، فليس كل من خالف أو أنكر شيئا من اعتقاد أهل الحق يجب أن يكون كافرا، فإنه قد يكون مجتهدا مخطئا، وقد لا يكون بلغه من العلم ما تقوم به الحجة، كما أن مسائل العقيدة ليست كلها على السواء، بل منها ما يكون إنكاره كفرا وإلحادا ومنها ما يكون إنكاره فسقا

١) بدائع التفسير ١/ ٣٢٨ .

وضلالا، فالإطلاق بأن جحد أحدها كفر بالجميع إطلاق غير سديد[1])[2].

قلت: إن ما ذكره الغامديّ تعليقا على كلام ابن المنيّر لا يسلّم له، لأن ابن المنيّر إنما حكم على القدرية من خلال ما غلب على حال غلاتهم وضلاّلهم ومتشبثيهم، وذكر حكما عاما فيمن كان هذا حاله من إنكار لأمر واحد أو أكثر مما يجب الإيمان به، وهو معلوم من الدين بالضرورة، وادعى أن الإيمان به ليس بلازم، فإنه لو حدث ذلك فلا فرق بين من أنكر شئيا واحدا أو أنكر الكل، أما من أنكر معلوما من الدين بالضرورة أو العمل به، مع اعترافه بوجوده، وأنه من مقتضيات الإيمان، فإن هذا هو الفاسق لا الكافر، وفسقه هذا لا يخرجه عن الملة لأن أصل الإيمان عنده غير مفقود.

ثم إن أمر الاجتهاد والخطأ فيه، لا يكون في العقائد ووجوب الإيمان بها بل يكون الاجتهاد في مسائل الفروع التي لا يؤثر الاختلاف في شأنها في أمر العقيدة الراسخة، فيغيّر عقيدة مثلا، أو يفتح بابا للقيل والقال فيما يجب الإيمان به من أمور الدين الثابتة، وأيما كانت درجات القدرية على اختلاف أحوالهم فهم مجتمعون على غالب المسائل التي ينكرونها، مؤكدين حالهم فيها، مع الفرق بين المغالي منهم والمعتدل، حتى لا يكون الحكم مطلقا.

ثم إن الغامديّ هذا: قد أساء الأدب كثيرا حين تجاوز حدود اللياقة في نسبته شيئا من الكفر إلى مذهب الأشاعرة، وكاد أن يسوي بينهم وبين القدرية حيث قال:(ثم إن هذه القاعدة التي أحلّها ابن المنيّر هنا لو طبقناها على

(١) راجع مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ١٧٩، ٢٢٩ -٢٣١- ١٢ / ١٨٠، ٤٧٩ - ٥٠١ .

(٢) المسائل الاعتزالية صـ ٢٣٤، ٢٣٥ .

مذهبه الأشعريّ الذي ينتحله لكان حريا أن يشمله حكم الكفر، لما في مذهبه هذا من الإنكار الصريح لكثير من عقائد أهل الحق التي جروا عليها، وتناقلوها جيلا بعد جيل، لكن هذا لم يقل به أحد من العلماء المقتدى بهم في الدين من المتقدمين أو المتأخرين)[١].

وفي هذا: من الجرأة القبيحة، والعداء البغيض ما فيه لابن المنير خاصة ومذهب الأشاعرة عامة، حيث سمى الغامديّ مذهب الأشاعرة نحلة، وكأنه يشير إلى أنها دخيلة على الإسلام، وأن أهل الحق الذين يعنيهم الغامدي ليسوا هم الأشاعرة، بل هم غيرهم، وقد صرح بأن أهل السنة والجماعة أهل الحق ليس هم الأشاعرة بل هم كما قال: (من كان على مثل ما كان عليه رسول **الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام والتابعون لهم بإحسان في أصول الدين وفروعه)[٢].

قلت: وهل كان الأشاعرة على غير ما كان عليه السلف الصالح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ بل كانوا هم أمثل الناس وأفضلهم إقتداءً بسيّدنا رسول **الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وتأسيا به وبصحابته الأجلاء، والتابعين لهم بإحسان.

وقد جاء في بعض المصادر أن القدرية وإن كانوا في بعض الأحيان يعترفون بشئ مما كان عليه أهل السنة من أصول الاعتقاد، إلا أن ما وقعوا فيه بعد ذلك كاف لإدانتهم، وبعدهم عن الحق.

فقد نقل العلامة الحافظ ابن حجر عن القرطبيّ قوله:(والقدرية اليوم

---

(١) المسائل الاعتزالية صـ ٢٣٥ .

(٢) المصدر السابق في المقدمةصـ أ، ب .

مطبقون على أن الله تعالى عالم بأفعال العباد قبل وقوعها، وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم، وواقعة على جهة الاستقلال، وهو مع كونه مذهبا باطلا أخف من المذهب الأول)(١).

وهذا الذي فسّر به الزمخشريّ ووافقه عليه ابن المنيّر قد قال به أيضا علماء أهل السنة من المفسرين منهم: العلامة فخر الدين الرازيّ حيث قال:(اعلم أن هذا النوع أيضا من قبائح أفعالهم:" **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ** " يعني به اليهود:" **آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا** " أي: بكل ما أنزل الله، والقائلون بالعموم احتجوا بهذه الآية على أن لفظة:"ما " بمعنى:" الذي " تفيد العموم، قالوا: لأن الله تعالى أمرهم بأن يؤمنوا بما أنزل الله فلما آمنوا بالبعض دون البعض ذمهم على ذلك، ولولا أن لفظة:" ما" تفيد العموم لما حسن هذا الذم، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم لما أمروا بذلك:" **نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا**" يعني بالتوراة وكتب سائر الأنبياء الذين أتوا بتقرير شرع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم يكفرون بما وراءه وهو الإنجيل والقرآن، وأورد هذه الحكاية عنهم على سبيل الذم لهم، وذلك أنه لا يجوز أن يقال لهم آمنوا بما أنزل الله إلا ولهم طريق إلى أن يعرفوا كونه منزلا من عند الله، وإلا كان ذلك تكليف ما لا يطاق، وإذا دل الدليل على كونه منزلا من عند الله وجب الإيمان به، فثبت أن الإيمان ببعض ما أنزل الله دون البعض تناقض، أما قوله تعالى:" **وَهُوَ الْحَقُّ مُصْدِقَاً لِمّاَ مَعَهُمْ** "فهو كالإشارة إلى ما يدل على وجوب الإيمان بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبيانه من وجهين: الأول: ما دلّ عليه قوله تعالى:" **وَهُوَ الْحَقُّ** "

(١) فتح الباري ١/١٤٥ - وراجع: المسائل الاعتزالية ١/٢٣٥ .

أنه لما ثبتت نبوة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالمعجزات التي ظهرت عليه، أنه عليه الصلاة والسلام أخبر أن هذا القرآن منزل من عند الله تعالى، وأنه أمر المكلّفين بالإيمان به، وكان الإيمان به واجبا لا محالة، وعند هذا يظهر أن الإيمان ببعض الأنبياء وبعض الكتب مع الكفر ببعض الأنبياء وبعض الكتب محال... الخ)[١].

وقال ابن عاشور:(وقوله تعالى:" **وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ** " جيء بالمضارع محاكاة لقولهم:" **نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا** " وتصريح بما لوّحوا إليه، ورد عليهم أي: يدومون على الإيمان بما أنزل عليهم، ويكفرون كذلك بما وراءه، فهم يرون أن الإيمان به مقتض للكفر بغيره، على أن للمضارع تأثيرا في معنى التعجب والغرابة وفي قرنه بواو الحال إشعار بالرد عليهم وزاد ذلك بقوله:" **وَهُوَ الْحَقُّ مُصْدِقاً لِمِّاَ مَعَهُمْ** ")[٢].

ويؤيد ذلك قول البيضاويّ في معنى قوله تعالى:(" **وَهُوَ الْحَقُّ** " الضمير لما وراءه، والمراد به القرآن " **مُصْدِقاً لِمِّاَ مَعَهُمْ** " حال مؤكدة تتضمن رد مقالهم، فإنهم لما كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها)[٣] وقال أبو السعود:(والمعنى: قالوا نؤمن بما أنزل علينا وهم يكفرون بالقرآن، والحال أنه حق مصدق لما آمنوا به، فيلزمهم الكفر بما آمنوا به، ومآله أنهم ادعوا الإيمان بالتوراة والحال أنهم يكفرون بما يلزم من الكفر بها)[٤].

(١) تفسير الفخر الرازي ٣/١٦٩، ١٧٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٣٤٩ .

(٣) تفسير البيضاوي ١/ ٣٦١ .

(٤) تفسير أبي السعود ١/ ١٣٠ .

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ١٠٣) قال الزمخشريّ:(ويجوز أن يكون قوله:" **وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا** " تمنياً لإيمانهم على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانهم، واختيارهم له كأنه قيل: وليتهم آمنوا)[١].

قال ابن المنيّر:(التمني مجاز عن إرادة الله تعالى لإيمانهم وتقواهم من طراز تفسيره للعمل بالإرادة والرد عليه على سبيل ثم[٢])[٣].

المناقشة والتعليق

ذكر الزمخشريّ أن الآية جاءت تمنيا لإيمانهم، وهذا لا يجوز في حق الله تعالى لأن التمني والترجي لا يصح أبدا في حق الله جَلَّجَلَالُهُ لما فيه من شائبة حاجة وافتقار فكيف يحتاج الغنيّ الحميد إلى عباده الفقراء حتى يتمنى إيمانهم وتقواهم؟ وزاد الزمخشريّ الأمر تعقيدا في قوله:" تمنيا على سبيل المجاز عن إرادة الله إيمانهم واختيارهم له الخ" لأنه يركن إلى القول بأن إرادة الله تعالى إيمان العباد ليست على سبيل الحقيقة، بل هي على سبيل المجاز، إشارة خفية منه إلى قاعدته في خلق أفعال العباد أيضا، وعلى كل

---

(١) الكشاف ١/ ٣٠٢ .

(٢) يشير إلى ما سبق في قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " الآية ٢١ من سورة البقرة – انظر: الانتصاف ٩٢/١- وقوله تعالى: "ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" الآية ٥٢ من سورة البقرة – انظر: الانتصاف ١٣٩/١ .

(٣) الانتصاف ١/ ٣٠٢ .

فالآية: جاءت على سبيل الإخبار من الله جَلَّجَلَالُهُ بأن هؤلاء الذين يتعلمون من الملَكين ما يفرّقون به بين المرء وزوجه، لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا الله فخافوا عقابه، لكان جزاء الله وثوابه لهم خيرا لهم من السحر الذي اكتسبوه(1).

وكلام جار الله في تفسير هذه الآية يتعارض مع كلامه في تفسير قوله تعالى:{**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**}[البقرة ٢١] حيث ذكر هنا التمني، وهناك نفي أن يكون معنى:" لعل ": الرجاء، لأنهما لا يجوزان في حقه تعالى فقال:(فإن قلت: ف:" لعل " التي في الآية ما معناها وما موقعها؟ قلت: ليست مما ذكرناه في شيء لأن قوله:" **خَلَقَكُمْ** " " **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** " لا يجوز أن يحمل على رجاء الله تقواهم، لأن الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة: وحمله على أن يخلقهم راجين للتقوى ليس بسديد أيضاَ، ولكن:" لعل " واقعة في الآية موقع المجاز لا الحقيقة، لأن الله عَزَّوَجَلَّخلق عباده ليتعبدهم بالتكليف، وركّب فيهم العقول والشهوات، وأزاح العلة في أقدارهم وتمكينهم، وهداهم النجدين، ووضع في أيديهم زمام الاختيار، وأراد منهم الخير والتقوى)(2) وقد علّق عليه ابن المنيّر بقوله:(كلام سديد إلا قوله: وأراد منهم الخير والتقوى، فإنه كلام أبرزه على قاعدة القدرية، والصحيح والسنة أن الله تعالى أراد من كل أحد ما وقع منه من خير وغيره ... الخ)(3) وهذا الكلام يبيّن أن جار الله الزمخشريّ- رحمه

(١) راجع: تفسير الطبري ٥١٣/١ - مجموع الفتاوي ٢٧٩/٢٤ .
(٢) الكشاف ٢٣٠/١، ٢٣١ .
(٣) الانتصاف ٢٣٠/١ .

الله تعالى- لم يترك فرصة لذكر قاعدته الاعتزالية في اختيار العباد أفعال أنفسهم بأنفسهم، إلا وانتهزها وكرر نفس الكلام بطريقة أو بأخرى، حتى يصل إلى ذكر ما يريد بطريقته الخاصة، التي يشوبها المكر والدهاء، كما هو معروف عنه- غفر الله له- وقد نقل القرطبيّ عن الأخفش[1] قوله:(ليس لـ:" **لو**" هنا جواب في اللفظ ولكن في المعنى والمعنى: لأثيبوا، وموضع:" **أن** " من قوله:" **وَلَوْ أَنَّهُمْ** " موضع رفع أي: لو وقع إيمانهم، لأن:" **لو** " لا يليها إلا الفعل ظاهرا أو مضمرا، لأنها بمنزلة حروف الشرط، إذ كان لا بد له من جواب، وأن يليه فعل، قال محمد بن يزيد: وإنما لم يجاز بـ:" **لو** " لأن سبيل حروف المجازاة كلها أن تقلب الماضي إلى معنى المستقبل)[2].

والمعنى: ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيرا لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به، كما قال تعالى:" **وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ** "[القصص ٨٠] أفاده ابن كثير[3].

٥- **قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾** [البقرة ١١٣] قال جار الله الزمخشريّ:(" **عَلَى شَيْءٍ** "يصح ويعتد به، وهذه مبالغة عظيمة لأن المحال والمعدوم يقع عليهما

(١) معاني القرآن للأخفش ١٤٢/١ .

(٢) تفسير القرطبي ٥٦/٢، ٧٥ .

(٣) تفسير ابن كثير١/ ١٤٥

اسم الشيء، فإذا نفي إطلاق اسم الشيء عليه، فقد بولغ في ترك الاعتداد به إلى ما ليس بعده، وهذا كقولهم: أقلّ من لا شئ)[١].

قال ابن المنيّر:(وتفسيره الشيء مخالف لفريقي أهل السنة والبدعة، فإنه عند أهل السنة قاصر على الموجود، وعند المعتزلة يطلق على الموجود، وعلى المعدوم الذي يصح وجوده، فليس متناولا بحال عندهما)[٢].

المناقشة والتعليق

دار الخلاف هنا حول مسمى:" الشيء " فالزمخشريّ يطلق هذا المسمى على: المحال والمعدوم، على ما انتهجه أهل الاعتزال، بينما يرى ابن المنيّر أن التسمية لا تصلح إلا على الموجود فقط، أما المعدوم والمحال فلا يطلق عليه ذلك، وأن هذا هو رأي أهل السنة، وعليه المعتمد.

قلت: إن كلا من تفسيري الزمخشريّ وابن المنيّر فيه نظر، واقتصار كل منهما على أمر معيّن في تعيين المسمى بـ:" **الشئ** " غير مسلّم أيضا، لأن القول الأصوب، والرأي الصحيح أن الشئ هو: اسم لما يوجد في الأعيان، ولما يتصوّر في الأذهان، فما قدره الله وعلم أنه سيكون هو شئ في التقدير والعلم والكتاب، وإن لم يكن شئ في الخارج، وقوله تعالى:{**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**}[النور ٤٥] يتناول شيئا في الخارج والعلم، أو ما كان شيئا في العلم فقط[٣].

(١) الكشاف ١/ ٣٠٥ .

(٢) الانتصاف ١/ ٣٠٥ .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٨ / ٩، ٣٨٣ - المسائل الاعتزالية صـ ٢٣٧، ٢٣٨ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (اتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشيء وتنازعوا في المعدوم الممكن، فذهب فريق من أهل الكلام من المعتزلة والرافضة وبعض من وافقهم من ضلاّل الصوفية إلى أنه شيء في الخارج لتعلّق الإرادة والقدرة به، وهذا غلط، وإنما هو معلوم لله ومراد له إن كان مما يوجد، وليس له في نفسه لا موت ولا وجود ولا حقيقة أصلا، بل وجوده وثبوته وحصوله شيء واحد، وماهيته وحقيقته في الخارج هي نفس وجوده، وحصوله وثبوته ليس في الخارج شيئان، وإن كان العقل يميّز الماهية المطلقة عن الوجود المطلق)[(١)] وقال أيضا:(والذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة عقلاء بنى آدم من جميع الأصناف أن المعدوم ليس في نفسه شيئا، وأن ثبوته ووجوده وحصوله شئ واحد، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع القديم، قال الله تعالى لزكريا:" **وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا**"[مريم ٩] فأخبر أنه لم يك شيئا، وقال تعالى:" **أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا**"[مريم ٦٧] وقال تعالى:" **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ**"[الطور ٣٥] فأنكر عليهم اعتقاد أن يكون خلقوا من غير شئ خلقهم، أم خلقوا هم أنفسهم، ولهذا قال جبير بن مطعم:" **لما سمعت رسول الله قرأ هذه السورة أحسست بفؤادي قد انصدع**[(٢)(٣)] ولو كان

(١) مجموع الفتاوي ٨/ ٤٨٤ .

(٢) يعني: انشق - اللسان :" صدع ".

(٣) الأثر في: درء التعارض لابن تيمية ١/ ١٣ تحقيق محمد رشاد سالم ط دار الكنوز الأدبية - الرياض ١٣٩١هـ- وفي الجواب الصحيح ٣/ ٢٠٢ تحقيق : د. علي حسن ناصر، د. عبد العزيز إبراهيم العسكر د. حمدان محمد ط دار العاصمة- الرياض - =

المعدوم شيئا لم يتم الإنكار، إذا جاز أن يقال ما خلقوا إلا من شيء، لكن هو معدوم فيكون الخالق لهم شيئا معدوما، وقال تعالى:" **فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا**"[مريم ٦٠] ولو كان المعدوم شيئا لكان التقدير:لا يظلمون موجودا ولا معدوما، والمعدوم لا يتصور أن يظلموه، فإنه ليس لهم وأما قوله:" **إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**"[الحج ١] فهو إخبار عن الزلزلة الواقعة أنها شئ عظيم ليس إخبارا عن الزلزلة في هذه الحال، ولهذا قال:" **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا**"[الحج ٢]ولو أريد به الساعة لكان المراد به أنها شئ عظيم في العلم والتقدير، وقوله تعالى:" **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** "[النحل ٤٠] قد استدل به من قال المعدوم شئ، وهو حجة عليه، لأنه أخبر أنه يريد الشيء، وأنه يكونه وعندهم أنه ثابت في العدم، وإنما يراد وجوده لا عينه ونفسه، والقرآن قد أخبر أن نفسه تراد وتكون وهذا من فروع هذه المسألة، فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة العقلاء أن الماهيات مجعولة، وأن ماهية كل شيء عين وجوده، وأنه ليس وجود الشيء قدرا زائدا على ماهيته، بل ليس في الخارج إلا الشيء الذي هو الشيء، وهو عينه ونفسه وماهيته وحقيقته، وليس وجوده وثبوته في الخارج زائدا على ذلك)[(١)].

فالتحقيق إذا في هذه المسألة: أن المعدوم ليس بشئ في الخارج، ولكن

=

الأولى - ١٤١٤هـ.

(١) مجموع الفتاوي ٢/ ١٤٥، ١٤٦، ١٥٥، ١٥٦ ، ١٥٨ بتصرف يسير- رسالة مراتب الإرادة ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ٢/ ٧٢، ٧٣- المسائل الاعتزالية ٢٣٨، ٢٣٩ .

الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه، وقد يذكره ويخبر به كقوله تعالى:" **إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**"[الحج ١] فيكون شيئا في العلم والذكر والكتاب، لا في الخارج والله أعلم[(١)] **والآية**: بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه إثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم، نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا، فارتفعت أصواتهم فقالوا لهم: لستم على شئ، أي: أمر يعتد به من الدين، أو على شئ ما منه أصلا، مبالغة في ذلك، كما قالوا: أقل من لا شئ وكفروا بعيسى والإنجيل " **وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ** " على الوجه المذكور وكفروا بموسى والتوراة، لا أنهم قالوا ذلك بناء للأمر على منسوخية التوراة " **وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ** " الواو للحال، واللام للجنس، أي: قالوا ما قالوا والحال أن كل فريق منهم من أهل العلم والكتاب، أي: كان حق كل منهم أن يعترف بحقيّة دين صاحبه حسبما ينطق به كتابه، فإن كتب الله تعالى متصادقة[(٢)].

والآية وقعت: في محل العطف على قوله:"**وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى** " لزيادة بيان أن المجازفة دأبهم، وأن رمى المخالف لهم بأنه ضال شنشنة قديمة فيهم، فهم يرمون المخالفين بالضلال لمجرد المخالفة، فقديما ما رمت اليهود النصارى بالضلال، ورمت النصارى اليهود بمثله، فلا تعجبوا من حكم كل فريق منهم بأن المسلمين لا يدخلون الجنة، وفي ذلك إنحاء على أهل الكتاب وتطمين لخواطر المسلمين، ودفع الشبهة

---

(١) المسائل الاعتزالية صـ ٢٣٨، ٢٣٩ .

(٢) تفسير أبي السعود ١/ ١٤٨ .

عن المشركين بأنهم يتخذون من طعن أهل الكتاب في الإسلام حجة لأنفسهم على مناوأته وثباتا على شركهم[1].

والمعنى: يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا:" **نَحْنُ أَبْنَآءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** "[المائدة ١٨] فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذّبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياما معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة ورد عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال:" **تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ** "[2].

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٨٩ .

(٢) تفسير ابن كثير١/ ١٥٥ .

الخاتمة

نسأل الله تعالى حسنها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفي، أحمده سبحانه علي جزيل فضله، وكريم عطائه، وعظيم توفيقه، فإليه تعالى يرجع الفضل كله، والإحسان بأنواعه، والمنّ بألوانه، فلولا توفيق الله تعالى لي وهدايته إياي، ما خرج هذا البحث علي صورته هذه، والتي أرجوا أن يكون قد أضاف جديدا في علم التفسير بعامة، والكشف عن اعتزاليات الزمخشريّ في تفسيره بخاصة، وقد توصلت في نهاية بحثي هذا إلى نتائج مهمة من أبرزها:

١- رأيت أثناء دراستي لتفسير الزمخشريّ أن هذا الرجل يعد بحق من أكابر علماء التفسير وأئمته المعدودين، والذين أضافوا إلى مكتبة التفسير جهدا طيبا وعملا رائعا، أفاد الأمة، وكشف لها عن العديد من أسرار الكتاب، لولا ما فيه من اعتزاليات جعلته محطا للنقد والفحص.

٢- ليس كل ما قاله الزمخشريّ من تفسيرات متنوعة تدخل في مجال الاعتزاليات التي تؤخذ عليه، ويفهم منها أنه حاد عن طريق الجادة، أو ابتعد عن الصواب، بل الذي يدخل في هذه الناحية هو ما يتعلق بأمور العقيدة وتفسيره الآيات بشأنها، والتي حمّلها الزمخشريّ ما لا تطيق من تأويلات فاسدة وتفسيرات هالكة، أما ما خالف ذلك من تعدد وجوه العربية والبلاغة والبيان، وتعيين مقاصد الآيات من خلالها، فلا يعد هذا من الاعتزاليات التي يستحق عليها الزمخشريّ أن يناصب العداء فيها، أو يحكم ببطلان مقالته، أو

فساد مذهبه، لأن كثيرا من أئمة التفسير وعلمائه من أهل السنة وغيرهم اختلفوا في مثل هذه المسائل، وكان لكل منهم رأيه وأدلته التي أيّد بها قوله، وأكد بها قصده، وقد يكون مصيبا، وقد يكون مخطئا٠

٣- كان الزمخشريّ في تعرضه لتفسير الآيات المتعلقة بأصوله الاعتقادية وأسسه المذهبية يفسر النص تفسيرا لا علاقة له به بالمرة ويحاول جاهدا توجيه المعنى إلى ما يريده هو بعبارات دقيقة، وأسلوب متنوّع وطريقة ماكرة، حتى يصل إلى غرضه من ذلك، وهو الوصول إلى فرض ما يعتقده من معتقدات اعتزالية باطلة، ويدعوا غيره إلى الأخذ بها، والعمل بمقتضاها، ولا شك أن هذا أسلوب مرفوض، ومنهج ممقوت، لا يقبله عاقل، ولا ينظر إليه منصف، وكان عليه وهو عالم كبير أن يتق الله تعالى في تفسيره ولا يقف موقف المتشبث بأقواله الداعي إلى تأييدها بأي طريق كان.

٤- رغم وجود هذه الأباطيل في تفسير الكشاف إلا أنها لم تنقص من مكانته كتفسير له قيمته بين التفاسير، فقد شهد بإمامة جار الله كثير من أهل الشأن والعارفين بحاله، وأعلنوا على الملأ أن كشافه جدير بالاطلاع عليه، والنظر فيه مع الحذر الشديد لما أودعه فيه صاحبه من اعتزاليات يجب أن يتعامل معها بما يتناسب ومقام إحقاق الحق وإبطال الباطل، لأن وجود هذه الشطحات الزمخشرية فيه كتفسير مهم، هي بمثابة النقطة السوداء في الثوب الأبيض.

وفي الأخير أقول: إن كان في هذا البحث من حسن صنيع، وبهاء قصد فهذا من فضل ربي تبارك وتعالى وتوفيقه، فله الحمد والمنة، ولا أحصي ثناءً

عليه، هو كما أثني علي نفسه، وإن كان فيه تقصير فمني والشيطان، وحسبي أني اجتهدت وحاولت عمل شيء حسن، يمكن أن ينفع طلاب العلم والمشتغلين بالتفسير ومن المعلوم أن القصور من شيم البشر، والخطأ من سماتهم، ولكن: لكل مجتهد نصيب. فاللهم ربنا: نسألك بحق وحرمة اسمك الأعظم الذي إذا سئلت به أعطيت وإذا دعيت به أجبت، وبحق وحرمة نبيّك الأكرم، وقرآنك الأكرم، أن تتقبل هذا العمل عندك، وأن تجعله في ميزان حسناتي يوم الدين، وأن تحقق له النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة يا كريم، آمين• آمين• آمين.

وصلى الله على سيّدنا ومولانا محمد وعلي آله وصحبه وسلم .

كتبه: أ.د. محمد عبد الجليل حسن محمود

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية الدراسات الإسلامية بنين بأسوان

أهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم: جلّ من أنزله.
- ابن الأثير: أبو الحسن عز الدين الجزرى:(ت٦٣٠هـ):" اللباب في تهذيب الأنساب " ط دار صادر بيروت.
- الأخفش: سعيد بن مسعدة:(ت٢١٠هـ):" معاني القرآن " تحقيق د٠فائز فارس ط دار البشير- دار الأمل- الثالثة - ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
- الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل إمام أهل السنة الأشعرية (ت٣٣٠هـ): "مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين" تحقيق محي الدين عبد الحميد ط دار الحداثة بيروت- الثانية ١٩٨٥م.
- الألوسي: أبو الثناء شهاب الدين محمود شكري:(ت١٢٧٠هـ):" روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني " ط دار إحياء التراث العربي بيروت.
- الباجوري: الشيخ إبراهيم:" جوهرة التوحيد " تحقيق محمد أديب الكيلاني وعبد الكريم تتان ط دمشق.
- البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم:(ت ٢٥٦هـ):" الجامع الصحيح " المعروف بـ:" صحيح البخاري" تحقيق د. مصطفي ديب بغا ط دار ابن كثير- اليمامة - بيروت - ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
- بروكلمان: كار بروكلمان المستشرق:" تاريخ الأدب العربي " ترجمة ومراجعة مجموعة من العلماء ط دار المعارف بمصر.

- البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب:(ت ٤٦٣هـ) " تاريخ بغداد " ط دار الكتاب العربي بيروت.
- البغدادي: أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد:(ت٤٢٩هـ):" الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم " تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ط دار الآفاق الجديدة بيروت١٩٨٢م- وط- الأولى- ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م- " الملل والنحل " تحقيق وتعليق د٠البير نصر نادر ط دار المشرق- بيروت- ١٩٧٠م.
- البغوي: أبو محمد بن حسين بن مسعود الفراء:(ت ٥١٠هـ):" معالم التنزيل " بتحقيق محمد عبد الله النمر وآخرين ط دار طيبة بالرياض ١٤٠٩هـ .
- البكريّ: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسيّ إمام اللغة:(ت ٤٨٧هـ):" معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع " تحقيق مصطفى السقا ط عالم الكتب - بيروت- الثالثة - ١٤٠٣هـ.
- البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين:(ت ٤٨٥هـ):" السنن الكبرى " ط دار المعرفة بيروت- وط تحقيق محمد عبد القادر عطا ط مكتبة دار الباز بمكة المكرمة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.
- الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى الإمام الحافظ:(ت ٢٧٩هـ):" الجامع الصحيح " المعروف بـ: " سنن الترمذي " تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون ط دار إحياء التراث العربى بالقاهرة.
- ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم شيخ الإسلام:(

ت ٧٢٨هـ): " مقدمة في أصول التفسير " ط دار ابن حزم بيروت - مجموع فتاوى ابن تيمية في التفسير " تحقيق عبد الرحمن محمد قاسم النجدي ط مكتبة ابن تيمية" مجموع الفتاوى "كاملا جمع عبد الرحمن بن قاسم ومساعدة ابنه محمد ط الرياض - الأولى- ١٣٨١هـ"

- الجوينيّ: د٠مصطفى الصاوي: " منهج الزمخشريّ في تفسير القرآن وبيان إعجازه " ط دار المعارف بمصر- ١٩٥٩م.
- الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن البيع:(ت ٤٠٥هـ):" المستدرك على الصحيحين " ط دار المعرفة بيروت- الأولى- ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م .
- ابن خالويه: أبو عبد الله الحسين بن محمد:(ت ٣٧٠هـ):" مختصر شواذ القرآن "عنى بنشره ج برجستراسر ط مكتبة المتنبي بالقاهرة - " الحجة في القراءات السبع " تحقيق عبد العال سالم مكرم ط دار الشروق بيروت - الرابعة - ١٤٠١هـ.
- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد:(ت ٨٠٨هـ): " مقدمة ابن خلدون " ط دار القلم بيروت- الأولى- ١٩٧٨م مصورة٠
- الخياط: أبو الحسين" الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد " تحقيق نيبرج ط دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٤هـ.
- أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني الحافظ:(ت ٢٧٥هـ):" سنن أبي داود " ط دار الحديث بالقاهرة - الأولى- ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- الداني: أبو عمرو عثمان بن معين المقرئ:(ت٤٤٤هـ):" التيسير في القراءات السبع " بتصحيح أوتو برتزل ط دار الكتب العلمية بيروت

١٩٩٦م.

- الداودى: شمس الدين أحمد بن محمد:(ت ٩٤٥هـ):" طبقات المفسرين " ط دار الكتب العلمية بيروت- وط تحقيق على محمد عمر ط مكتبة وهبة بالقاهرة ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.
- الذهبيّ: أ.د. محمد حسين: " التفسير المفسرون " ط دار القلم بيروت- الأولى- وط دار القلم بيروت.
- الرازيّ: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر:(ت٦٦٦هـ):" مختار الصحاح " تحقيق محمود خاطر ط مكتبة لبنان بيروت سنة ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.
- الزمخشريّ: أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزميّ الإمام:(ت٥٣٨هـ)" الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل " ط دار الفكر بيروت.
- ابن زنجلة: عبد الرحمن بن محمد أبو زرعة:" حجة القراءات " تحقيق سعيد الأفغاني ط مؤسسة الرسالة بيروت- الثانية- ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
- الشيباني: أحمد بن محمد بن حنبل الإمام المحدّث:(ت ٢٤١هـ):" مسند الإمام أحمد " ط مؤسسة قرطبة- مصر- الطبري: محمد بن جرير الإمام:(ت٣١٠هـ):" جامع البيان عن تأويل آي القرآن" المعروف بـ: " تفسير الطبري " ط دار الفكر بيروت الثانية - ١٣٧٢هـ وعليها غالب الاعتماد.
- القرطبي: أبو عبد الله أحمد بن محمد الأنصاري الخزرجي:(ت٦٧١هـ):" الجامع لأحكام القرآن " تحقيق أحمد عبد العليم البردونى

ط دار الشعب بالقاهرة - الثانية - ١٣٧٢هـ.

- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي:(ت ٧٧٤هـ):" تفسير القرآن العظيم" ط دار الفكر بيروت ١٤٠١هـ.
- ابن المنيّر: أحمد بن محمد المالكيّ الإسكندريّ:(ت٦٨٣ هـ)" الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال " مطبوع بهامش الكشاف بدار الفكر بيروت.
- الهروي: أبو عبيد القاسم بن سلام:(ت ٢٢٤هـ):" فضائل القرآن " تحقيق وهبي سليمان غاوجى ط دار الكتب العلمية بيروت- الأولى- ١٤١١هـ- " غريب الحديث " ط دار الكتاب العربي بيروت ١٣٩٦هـ٠

تم بحمد الله